الفَصْل الثانِي عَشَر

مَشاهِد مِنْ جَبَهَات القِتَال

obeikandl.com

obeikandl.com

الطَّريق إلى "بَادِمِّي"

"بدأ الشرُّ في العَالم حِينَ وَضَعَ أوَّل إنسانٍ علامةً عَلَى قِطعَة أرضٍ، وقال: هَذِهِ مِلْكِي"

جان جاك رُوسُو

شأن سائر أيام السنة في هذه الفترة، كان الجو ربيعياً مُفعَماً بالحياة.. ذلك على الرغم من سيرة الحرب الكريهة التي خيّمت على النُّفُوس، وأضفت عليها توترا وكآبة، وهذا إحساسٌ لا يلمحه إلاَّ من هيَّأت له الظروف معرفة شيءٍ من خصائص ومُكوِّنات الشخصيَّة الإريتريَّة.. فالإريتريون بصفة عامّة، لهُم قُدرة عجيبة على إخفاء مشاعرهم، خاصَّة تلك التي تتصل بالأحزان والآلام والأتراح!

في الثامنة صباحاً، انطلقت من ساحة فندق "صن شاين" "Sunshine" الكائن في قلب العاصمة أسمرا ثلاث سيّارات "لاندكروزر"، تحمل بداخلها نحو خمسة عشر صحفياً من جنسيّاتٍ متعدّدة، ومن وسائل الإعلام العربيَّة شخصي وزميلة من القناة الفضائية لتلفزيون "الشرق الأوسط"، "نادية بلبيسي". كانت من نصيبي السيّارة التي ضمَّت مرافقتنا من وزارة الخارجيَّة "حنا سيمون" وزُملاءٌ آخرين من التلفزيون الإريتري، وقد سَعِدتُ لهذه الرفقة، ذلك لأنها ببساطة تتيح لي أن أكون السائل الرئيسي على مدى الطريق، الذي اقطعه للمرَّة الأولى، وفيه الكثير من المُدُن والقُرى التي يجدُر معرفتها، لا سيّما تلك التي ارتبطت بأحداث معيّنة في التاريخ الإريتري الحديث.

خرجت السيَّارات الثلاث من جوف المدينة، سالكة الطريق المُتَّجه غرباً من العاصمة، مُتباعدة، واحدةً تلو الأخرى عن بعضها البعض.

في العاصمة ومحيطها، لا شيء من مظاهر الحرب يسترعي الانتباه، غير مدافع أرضيَّة - مضادَّات- قليلة تتناثر في فضاء المطار وحولها جنديان أو ثلاثة، بعضُهُم يستظل بظلها، والمطار لا يبعُد كثيراً عن العاصمة، إن لم يكن محاذياً لها.. لرُبَّما كانت تلك الجاهزيَّة القتاليَّة تحسُّباً من قصفٍ آخر يقوم به الطيران الإثيوبي على حين غرة، مثلما فعل في بداية الحرب.

تتهادى السيارات الثلاث في الطريق المُنبسط، وبعد عدَّة كيلومترات، بدأ الريف الإريتري يُطِلُّ من خلال قُرى صغيرة، منازل بسيطة مبنيَّة من مواد محليَّة

من القش والأخشاب، تتباعد عن بعضها أحياناً، وتقترب أحياناً أُخَر، وتتداخل بينها منازل من الطوب والأسمنت، والقرويون يمارسون حياتهم الطبيعيَّة، إما زراعةً أو رعياً لمواشيهم.. ظلَّ جهاز الراديو في السيارة يبث الأغاني والأناشيد الوطنيَّة باستمرار، وعلى الرغم من أنها كانت باللغة التيغرينيَّة، إلاَّ أن المُنصِت لها يشعُر بأنها لابُدَّ وأن تجد مستقراً لها في القلب والوجدان.

يتبادل رفقائي في السيارة أيضاً الحديث باللغة التيغرينيَّة - التي أجهلها- ولكن أذني تلتقط أحياناً بعض الكلمات المألوفة، فتكون مدخلاً لي في الكلام بإنجليزيَّة بسيطة، أو عربية بسيطة تلم بها "حنا".. فيما عدا ذلك، ظلَّ ذهني شارداً معظم الوقت بصُوَرٍ ورُؤى تتداعى أمام عيني، وهي إمَّا لحدثٍ مضى أو اجتهاداً لما هو مُتوقع، وكلاهما متعلق بالطبع بهذه الحرب التي أخوض غِمَارها مهنياً للمرَّة الأولى في حياتي منذ امتهاني الصحافة.

كُنتُ قد ضحكتُ في دواخلي لمُفارقة صغيرة عندما توقفت السيارات الثلاث قبيل دخولنا مدينة "مندفرا".. إذ مررتُ على كُلِّ الزُملاء ورأيتُهُم مُحمَّلين بأشياءٍ كثيرة مِمَّا يُؤكل ويُشرَب، في حين اتضح لي أنني لا أحمل سوى كاميرا تصوير ودفتر.. ولا أدري لماذا لم أشغل نفسي بما شغل زملائي أنفُسهم به، لكنني قلتُ إن ذلك يمثل الفارق بيننا، فارق سلوكي بين عالمين، أو فارقٌ مهنيٌ - سيَّان- فأولئك بدون شكٍ قد مرُّوا بتجارب كثيرة مماثلة، خاصَّة في تغطيات الحروب والكوارث البشريَّة، لذا فهُم أهل خبرة فيما تزوَّدوا به. لذلك لم أجد بُداً من أن أطلب من سائقنا التوقف أمام بقالة تزوَّدتُ منها بزجاجات مياهٍ معدنيَّة، وأنا غير مقتنع بما فعلت!

كنا قد توقفنا قليلاً لأن "حنا" أخبرت الجميع بأننا سنعرج أولاً على مستشفى مدينة "مندفرا"، لأنه يوجد عددٌ من المُصابين جرَّاء قصف مدفعي إثيوبي وقع على مدينة "عدي خالا"، وهي التي ذكرناها في فُصُولٍ سابقة باعتبارها مسقط رأس رئيس الوزراء مِليس زيناوي!

التقينا في المستشفى د. وُلدو أسمروم المدير العام، الذي قدَّم لنا شرحاً نظرياً لحالات المُصابين، فقال إن عددهم يبلغ نحو ٢٠ من الجرحى، كلهم مدنيون، توفي منهم اثنان، أحدهما طفل.. ثم طاف معنا بعنبرٍ يضم كل المصابين، بعضُهُم كبار في السِن، تعرَّفتُ إلى واحدٍ في العقد الرابع من عمره، رأيته كثيراً في العاصمة أسمرا، وهو كذلك تعرَّف عليَّ، ومن حُسن حظه أن جرحه كان طفيفاً.. حكى لي كيفيَّة إصابته، وقال إنه ببساطة كان يسير في الطريق العام، وكان قد سافر أساساً من أسمرا إلى "عدي خالا" للاطمئنان على أسرته، مقارنة مع آخرين كنتُ أراهم يتأوَّهون.. قلت له: «**ومع ذلك تعتبر محظوظاً؟**»، فأومأ لي برأسه علامة الرضا..

تتبعنا د. أسمروم حتى توقف أمام غرفة صغيرة، قال إنها "المشرحة"، وفي داخلها كشف عن الغطاء الأبيض الذي كان يضم جثة متمدِّدة على دكة

إسفلتيَّة، فكانت لطفلٍ تُوفي قبل ساعاتٍ من قدومنا.. عمره لا يتجاوز العشرة أعوام.. دنوتُ أتأمَّله.. كان في عُمر ابنتي الصُغرى.. وجهه ينضح براءة.. شرائط طبيَّة بيضاء ملفوفة حول رأسه طغى عليها لون الدم الأحمر.. كان ذلك موضع الإصابة كما ذكر الطبيب، وكدت أن أجهش بالبكاء.. غالبتُ الدمع كثيراً، حتى نسيتُ أن أتعامل مع الموقف مهنياً، كما فعل زملائي، الذين راحوا يلتقطون الصور وبريق الفلاشات يُضفي على وجهه براءة طفوليَّة أكثر.. تخيلته يبتسم لها رغم موته.. ذلك الإحساس أعطاني القدرة لانتزاع عواطفي جانباً والتقاط صور له بيدٍ راعشة تحاول التماسُك.

غادرنا المُستشفى.. تبدو حركة الحياة عاديَّة في المدينة.. المواطنون في غَدوِهِم ورَوَاحِهِم، بعضُهُم يستوقف نفسه ليُحدِّق بنظراتٍ تساؤليَّة في السيَّارات الثلاث العابرة.. لرُبَّما يُدركون أنها متَّجهة إلى الجبهة، فذلك لا يحتاج إلى كبير عناء، فليس من سببٍ غير هذا يدفع ذوي السحنات البيضاء للمجئ إلى مناطق كهذه!

عندما تركنا المدينة من ورائنا، بدا أيضاً أننا تركنا خلفنا الطريق المُسفلت، وبدأت السيَّارات تسلك طريقاً مُمهَّداً يلتوي بين قمم الجبال الشاهقة، وتثير غباراً كثيفاً يشُق عنان السماء..

ظلت صورة الطفل تتراءى أمام عيني من حينٍ لآخر.. أتخيَّله أحياناً وهو يلهو بين أترابه، وأتخيَّله أحياناً أُخَر وقد شبَّ عن الطوق فتى يافعاً، ثم رجُلاً تسلح بالعلم الذي يعود عليه وعلى وطنه بالفائدة.. أتخيَّلُ ذلك وألعنُ الحرب في سِرّي، وقد ازددتُ مُقتاً وكُرهاً لها.

مع ذلك، أدركتُ مؤخراً بأن مشاهدة الجرحى المُصابين في المستشفى بصورة عامَّة، والطفل بصورة خاصَّة، مثَّلت بالنسبة لي نقلة نفسيَّة كبيرة في تقبُّل ومعايشة مأساويَّة الحرب في فُصولها التالية.

كانت أجسادنا تهتز بشدَّة داخل السيارة، نسبة لوعورة الطريق، مِمَّا جعل التركيز في التفكير عصياً في ظرفٍ كهذا. كانت السيارات الثلاث التي تُباعِد بينها المسافات تقطع طريقاً وسط الجبال عُلواً وهُبوطاً، ثم تسير مسرعةً أحياناً لبضع مئات من الأمتار في وادٍ منبسط غير ذي زرع، لم تُكسِبهُ الطبيعة سوى شُجيراتٍ صغيرة هنا وهناك ذابت خُضرتها واكتست بلونٍ مائلٍ قليلاً للون التلال والهضاب المحيطة بها.. ثمَّ تواصل سلاسل الجبال ظهورها مرَّة أخرى.. ويستمر الحال على ذلك المِنوال لبضع ساعاتٍ حتى تأخذك الشفقة على السائق والسيارة معاً!

بين الفينة والأخرى تُطِلُّ على أحد جانِبَي الطريق قرية صغيرة، ترى سُكَّانها يتحرَّكون بين المنازل، مِمَّا يعني أنها ما زالت تنبض بالحياة على الرغم من أنها نظرياً داخل منطقة الخطر، فقد قيل لنا إننا قطعنا ثُلثي المسافة وتبقى الثلث

الأخير، ممّا يُفترض معه أن يكون ساكنو هذا الجُزء قد رحلوا إلى مناطق أخرى اكثر أمناً، وهو ما لم يحدُث آنذاك لأسبابٍ أجهلها، ويجهلها زملائي في السيارة أيضاً.

غير أنّ أكثر المناظر التي كانت تُصيبني بالدهشة والذُهول، تلاميذ المدارس يمشون بمُحاذاة الطريق المُمهّد سيرا على الأقدام. وهُم يتأبّطون حقائبهم المدرسيّة، وبدا أنهم يتنقلون بين قُراهُم ومدارسِهم، وفي سبيل ذلك، يقطعون عشرات الكيلومترات، وبصورة مماثلة، تتراءى أمام عيني مشاهد فُقراء الريف الإثيوبي وهُم يسيرون حُفاة عُراة، إلاّ من رحمة ربّي.. وكنتُ قد تألمتُ لرؤية ذلك أيضاً كما ذكرتُ في زيارة إلى مدينة "ميكلي" عاصمة إقليم التيغراي في ديسمبر في العام ١٩٩٦، مروراً بقُرى كثيرة، وصولاً إلى قرية "نجاش" حيث يوجد ضريح الملك احمد النجاشي، وذلك لحُضُور أوّل مؤتمر لمُسلمي إثيوبيا، أقامه المجلس الأعلى الإسلامي.

تتداخل هذه الصور أمام ناظري، ولهذا دائماً ما يسيطر على المرء السؤال الحائر: «**لم الحربُ، طالما أن كُلفتها الماديّة يمكن أن تبني مدارس وتُنشئ مستشفيات.. تشق طُرُقاً.. وتوفر مياهاً نظيفة؟!**»..

توقفنا لمدة رُبع الساعة في بلدة "شامبكو".. اخترنا مقهى صغيرا تناولنا فيه جميعاً بعض المشروبات، وقيل لنا: بعد أقلّ من ساعتين سنكون في المواقع الأوليّة للجبهة.

ما أن غادرنا البلدة وابتعدنا قليلا عنها، حتى بَدت لنا بعض لمظاهر العسكريّة الإريتريّة متمثلة في مواقع لا تتبيّنها العين الاّ بعد تدقيق شديد، ذلك لأن من الصّعب تمييزها من الطبيعة المُحيطة بها، سواء كانت أشجارا أو تلالاً جبليّة، ولا شكّ أن خبرة حرب الثلاثين عاماً التي خاضوها من أجل الانفكاك من ربقة المُستعمر قد لعبت دورا كبيرا في كُلّ الأساليب العسكريّة التكتيكيّة في الحرب الراهنة.

تتكاثر المظاهر المذكورة كلما اقتربنا أكثر، وفي تلك الأثناء مرّرنا على وادٍ عريض، بدا لنا أن مياهه قد جفّت وأصبحت متقطعة كالجُزُر، وقد حفت جانبيه أشجار "الدوم" الضخمة المتشابكة. فكان منظرا خلابا وسط تلك الرقعة الجغرافيّة التي تطغى عليها السلاسل الجبليّة، والهضابُ والصحراء.. علمنا أن المياه المتقطعة هي لـ"نهر مرب"، الذي يفيض في فتراتٍ معيّنة من العام.

كانت الشمس قد انتصبت في كبد السماء، ومع ذلك فالجو ما يزال وسطياً لم يمل إلى السخونة او إلى البرودة، وبعد مسيرة عدّة كيلومترات، توقفنا في اوّل المواقع، بدا لي من مظهره أنه مقرّ القيادة الميدانيّة.. غُرفٌ لا تزيد عن ثلاث أو أربع، بُنيّت متباعدة عن بعضها البعض، ولكن بعنايةٍ فائقة في التخفي وسط أشجار

كثيفة، وتدلُّ موادّها التي بُنِيَت بها كأنما قد أعِدّت على عجل، وكان وصولنا مدعاة لخروج كُلّ من بداخلها، ولم يكُن عددهم كثيراً، لكنك لا تستطيع أن تتبيّن من هُو الجندي ومن هُو القائد، فليس ثمّة شيء يُميّز واحداً عن الآخر، بل لا أحد يحمل في يده أو في وسطه سلاح..

طُلِبَ منا الجُلوس والانتظار قليلا بينما ظلّ كُل مَن بالمكان في حركة دائبة، ولكنها بالهدوء الإريتري المعتاد.. كنتُ أتفرّس في الوُجوه التي تتكلم همساً لعلني أتعرّفُ على واحدٍ منها، ولم أكن محظوظاً في ذلك.

غادَرَت سيّارتان المكان، وعادتا بعد فترة قصيرة، وقد تغيّرت ملامحهُما تماماً، حيث تمّ تغطية مظهرهُما الخارجي بالطين اللزج، وذلك للتمويه، كما وضح بالنسبة لنا. وسألتُ "حنا"، فقالت لي إننا سنتجه إلى المواقع الأماميّة، وبدأت الرحلة مجدّداً بتوزيع راكبي السيارة الثالثة على السيارتين الأخريين، وثمّة إحساس داخلي يقول إننا بدأنا السير في ميدان المعركة.. أو بالتعبير العسكري "الأرض الحرام"!

دققتُ النظر في وُجوه زملائي، فرأيتُهُم وقد اتسعت حدقات عُيُونِهِم، وأنا كذلك، وأصبحنا نُطيلُ النظر يُمنة ويُسرة، وعيوننا لا تستقر على حال، وذلك في سبيل أن نرى الأشياء غير المألوفة التي قطعنا كل هذه الكيلومترات من أجلها..

كان السكون يطغى على كل شيء حولنا في البداية، لا نسمع شيئاً سوى حفيف الشجر وصوت محرّك السيارة التي تقلنا، وبين مسافة وأخرى، نرى الآليّات العسكريّة وقد دُسّت بين الأشجار والتلال الصغيرة بصورة تنم عن الخبرة القتاليّة التي سلف ذكرها..

بعد مسير نحو عشرة كيلومترات تقريباً، توقفنا عند قرية تهدّمت بعض منازلها، وبدا ألاّ حياة فيها، بعد أن هجرها ساكنوها وأصبحت كالأطلال، وعندما قيل لنا إنها "بادِمِي"، كاد قلبي أن يتوقف، وقلتُ لنفسي: إذا، هذه هي "كعب أخيل" الأزمة، ولكن أن تكون هذه القرية الخاوية عُروشها هي "القشة" التي قصمت ظهر العلاقة، وأحالت مثاليّتها إلى بُحُورٍ من الدم، فذلك ما يدعو للدهشة الحقيقيّة والاستغراب، الذي لن يجد ما يُطفئ أواره..

لم يكن عدد المنازل التي بُنِيَت بمواد بسيطة يزيد على الثلاثمائة منزل، رُصّت في صُفوفٍ مستطيلة، لا تخلو من عشوائيّة، ليس بينها منزل واحد مختلف بُنيانه ليدُلّ على أنه مبنىً يُقدّم خدمة للمُواطنين، مثل مدرسة أو مركز صِحّي أو ما إلى ذلك.

في الجلسة المُغلقة للقمّة الأفريقيّة المُصغّرة التي ورد ذكرها والتي خُصّصَت لمعالجة الأزمة، وكانت تضم كلاً من بوركينا فاسو ورُواندا وزيمبابوي وجيبوتي، سأل الرئيس أسياس أفورقي الرئيس روبرت موغابي أن "يُخمّن" له

عدداً يعتقده الأخير أنه عدد سكان "بادِمّي"، فقال له موغابي: «**ربَّما مائة ألف**».. فضحك أفورقي، وقال له: «**ماذا تقول لو قُلتُ لك إن عدد سكانها لا يزيد عن ثلاثة آلاف نسمة؟**».. فأبدى موغابي دهشته، ولم ينبسَّ ببنت شفة.

توقفنا عند مقهى بسيط، بدا أن صاحبه - وهو شابٌ صغير- قد آثر البقاء دون سواه واستمرَّ في تقديم خدماته للجنود العابرين، فشربنا عنده مياهاً غازيَّة، وكانت باردة، ولم يكن هناك أثرٌ للكهرباء، لكن حُب الاستطلاع قادني لمعرفة الكيفية التي فعل بها ذلك، فكانت الوسيلة هي مبرِّد صُنِعَ بطريقة تقليديَّة، ورغم أن ذلك مثير، إلاَّ أنني لم أتعجَّب، فذلك دأب بني البشر، دائماً ما تجد بينهم من يكيِّف نفسه على الظروف أياً كانت هُويَّتها.

واصلنا سيرنا بهدوءٍ شديد، ومن حينٍ لآخر نسمعُ صوت انفجارات، تزداد كلما تقدَّمنا، وعلى جانبي الطريق؛ كانت هناك بقايا نيران تشتعل في الأشجار والحشائش المُحيطة بالمنطقة، بدأت تزداد كلما تقدمنا أكثر.. واتضح من السؤال أنها بفعل القصف الإثيوبي من على البُعد.. آنَئذٍ، ارتسمت علامات الخوف على وجوه بعض الزُملاء ولم أكن استثناء!

كان الزُملاء الأجانب يُكثرون من الأسئلة المُوجَّهة إلى سائق سيارتنا، ولكنه آثر الصمت، ولا أدري هل لجهله باللغة الإنجليزيَّة، أم بناءً على تعليماتٍ ألقيت عليه؟! وعندما لا يجدون إجابة، كانوا يتوجَّهون إليَّ بذات الأسئلة - ربَّما لسُمرة بشرتي- فكنتُ أقول لهُم مبتسماً: ليس المسئول بأدرى من السائل!!

عليه، استمرَّ البعض في توجيه سيل أسئلته دون انتظار إجابة ما! هكذا خُيِّل لي.. وبعد نحو ثلاثين كيلومتراً من نقطة انطلاقنا من مقرّ القيادة، توقفت سياراتنا، وطُلِبَ مِنا النزول جميعاً للسير على الأقدام، وكانت الساعة قد بلغت حوالي الرابعة بعد الظهر.

خُبِّأت السيارات في مواقع مُعدَّة لهذا الغرض، لنبدأ السير راجلين، وقبل أن نُسرع الخُطى، كانت القذائف تنهمر على المنطقة، وعندما تصطدم بالجبال تُحدِث دوياً هائلاً يصعُب على المرء غير المعتاد عليه أن يتماسك من هولها.

كُنا نسمع الأصوات، ونرى الأشجار والحشائش حولنا تحترق، وبالطبع لا يستطيع أي منا رؤية القذيفة قبل انفجارها، لكن كانت القذائف أصواتها مختلفة، والمُدهش أن مرافقنا حينما يسمع صوتاً معيَّناً وهو يسير أمامنا كان يطلب منا الاستلقاء بسرعة على الأرض لمدَّة دقيقتين أو ثلاث، ولا يحدث هذا مع أصوات قذائف بعينها، وقد ألفنا ذلك الصوت وصِرنا نفعل ذلك تلقائياً.

واصلنا السير هكذا لمسافة تربو على كيلومتر واحد، وكان السير في حدِّ ذاته علواً وهبوطاً وسط التلال والجبال عمليَّة مُضنِيَة، ناهيك عن توابعه من أصوات القذائف التي لم تتوقف حتى وصولنا إلى دفاعات نُحِتَت بمهارة على

سُفوح الجبال، وكان منظرها يبعث الطمأنينة في النفس، وهي بالطبع تنم عن خبرة اشتهر بها الإريتريون.

كانت القذائف ما تزال تنهمر على المنطقة بشدَّة، وقد قُدِّرَ لي أن أحصي توقيتها - لرُبَّما بدافع الهلع- فكان الفارق الزمني يعد بحوالي عشر دقائق بين كل قذيفة وأخرى، غير أن الهلع الذي ذكرت تحوَّل نسبياً إلى طمأنينة حينما رأينا الهُدوء والروح المعنوية العالية تسيطر على تصرُّفات المُقاتلين الإريتريين، بل إن بعضهم راح يبث الطمأنينة على مسامع الزملاء وبالذات السيِّدات، وهذا دافع غريزي بالطبع، المهم أن كلماتهم أشاعت شيئاً من السكينة في نفوسنا.

طلبوا منا في البداية أن نحتمي داخل الخنادق، وذلك أمرٌ لا يستطيع المرء أن يخالفه، ومع ذلك فقد هيَّأ لنا أحد المُقاتلين أن نرى الخُطوط الأماميَّة الإثيوبيَّة بواسطة منظارٍ مُكبِّر، وذلك من خلال كُوَّة أعِدَّت بإحكام على جدار الخندق، فتدافعنا واحداً إثر الآخر، كُلٌّ يريد أن يستمتع بهذه "المُشاهدة الآمنة". ومن حينٍ لآخر، كان ذلك المُقاتل يلتقط منا المنظار، ليُواصِلَ مهامَّه، وبدا لي أنه مُكلف بهذا الجانب، خاصَّة أنه بين كل فترة وأخرى كان يتحدَّث مع جهةٍ ما بجهاز لاسلكي صغير يحمله في يده. بعد فترة ليست بالقليلة، أصبح صوت القصف متقطعاً، وكانت الساعة حوالي السادسة مساء، ومن المُفارقات الغريبة أن أكثر من مقاتل تحدَّثنا إليه، قال إن القصف سيتوقف عند الساعة السابعة تماماً، وهذا ما حدث بالضبط.

على إثر توقف القصف، نودي علينا من داخل الخندق، وقالوا لنا إننا سنتحرَّك نحو تلٍ قريب (نحو ٢٠٠ متر) لنكون أكثر قُرباً من مواقع أرادوا لنا أن نشاهدها. ولكن التعليمات كانت أن نسير فرادى، متباعدين عن بعضنا البعض، وبسرعة أقرب إلى الهرولة، على أن يكون ظهرنا في شكل انحناءة أقرب إلى الأرض.. قلتُ لنفسي: هذا هو الظرف الذي لا تستطيع أن تتساءل فيه بـ"لا" أو "لماذا"! وما عليك سوى التنفيذ دون أدنى اعتراض أو سؤال.

عندما اكتمل جمعنا في التل، خبَّأنا أجسادنا خلف صخرة كبيرة، واشرأبَّت رءوسنا تختلس النظر لأمكنة.. كان اثنان من المُقاتلين يقومان بالشرح وأيديهما تشير إليها..

قال أحدهما: «**ذلك المكان الذي ترونه أمامكم يُسمَّى "جيراسلاسي"، وقد ادَّعى الإثيوبيون بالأمس أنهم استعادوها، لكن ذلك لم يحدُث، بل لن يجرُءوا على ذلك، لأنها كما ترون تقع تحت مرمى مدفعيَّتنا، ولذلك هم يقصفون من على البعد**».

ثم استدرنا إلى ناحية أخرى.. نظرنا من عَلٍ، فكان هُناك وادٍ يقع بين جبلين وقد تناثرت في أرجائه جُثث كثيرة.. كان منظرها يُثير الرُّعب والاشمئزاز معاً..

بدأ المُقاتل الآخر في شرح المعركة التي دارت في ذلك المكان قبل يومين من وصولنا، وقال: «**شعرنا في الساعات الأولى من الصباح أن هناك حركة غير**

عادية، وبرصدنا لها اكتشفنا أن الإثيوبيين خرجوا من دفاعاتهم وتحرَّكوا صوب "نهر مرب"، وذلك يعني أنهم أرادوا الالتفاف علينا، فتركناهُم وهُم يسيرون في شكل أمواج بشريّة، لأن هذا دأبُهُم في القتال، إلى أن اجتازوا الجُزء الأوسط من الوادي الذي أمامكم في حوالي السادسة صباحا، وبعدها فتحنا نيران مدفعيتنا عليهم، والنتيجة كما ترونها أمامكم».

كانت الجثث التي غطت الوادي أشبه بعمليّة انتحار جماعي، ويحتار المرء في القائد العسكري الذي دفع بجنوده هكذا، في مخاطرة يعتقد أنها نُزهة. لم أكن قد تمعّنتُ في وجهي المُقاتلين اللذين كانا يشرحان لنا، وفي لحظة وجّهتُ بصري صوب أحدهما، فإذا بي ينتابني شعور يؤكد أنني التقيتُه، وجال بصري على الآخر فإذا بالشعور ذاته يتملكني، وبدأتُ أفكّر لثوانٍ في محاولة لتذكر المكان أو الزمان، ولمّا كُنتُ أرتدي قميصاً دعائياً لأحد الفصائل السياسيّة/العسكريّة السودانيّة. نُقشت على واجهته شعارات تحمل قِيم الديمقراطيّة والعدالة وحقوق الإنسان، قال لي أحدهما: «**هل تعرف "فلان"؟!**».. وقبل أن أبادر بالإجابة، تذكرتُ انني التقيتهما في مكانٍ ما، ولكن في ظروفٍ أخف وطأة من ظروف الموقع الذي نحن فيه.

كنتُ قد تعرّفتُ على اسميهما، وذلك أعطاني مزيّة من دون زملائي في شرح أشياءٍ خاصّة، ومع أنهما القائدان المسئولان عن ذلك الموقع، إلاّ أنهما رفضا الإفصاح عن اسميهما عندما طلب منهما أحد الزُملاء ذلك، واعتذرا له بدعوى أن الرَفض يأتي امتثالاً لتقاليد الثورة الإريتريّة.. ثمّ عُدنا إلى الدفاعات بذات الطريقة التي اتينا بها..

في الساعة السادسة والنصف تماماً، شاهدنا طائرتين مدرّعتين من طراز الهيلكوبتر تحومان فوق رُءوسنا، وبدأتا في القصف، واشتعلت المنطقة بالقصف المُضاد كذلك.. فطُلب منا الاحتماء داخل الدفاعات التي أسرعنا نحوها لاهثين. وبعد نصف ساعة، توقف القصف تماماً، فتدافعنا للخروج.. جلستُ على صخرة صغيرة وقد تملكني إحساسٌ عميق بالأسى، كِدتُ من جرّائه أن أصرُخ بأعلى صوتي: كفى! أو حتى أجهش بالبكاء..

لاحظتني الزميلة "نادية بلبيسي"، فقدِمَت نحوي وسألتني بلهجة شاميّة مُحبّبة: «**فتحي، شو بيك؟**».. التفتُّ إليها، وقلتُ: «**حزينٌ يا نادية.. حزين جداً.. إن كانت كل هذه الدماء من أجل هذا الموقع، فذلك جنون.. هذه حربٌ عبثيّة، لا مُبرّر لها**».. فردّت بكلماتٍ ربّما ارتأت من ورائها المُواساة: «**وين عم بتفكر حالك.. نحن في أفريقيا!**».. وكأنها بذلك كانت تُعطي تبريراً منطقياً لهذه الحرب العبثيّة فعلاً..

كان الليل قد بدأ يرخي سُدُوله، وانقلب الحال إلى النقيض.. ران الصمت على المكان، وعلى مدى البصر، كانت النيران التي اشتعلت في الحشائش والأشجار بفعل القصف المدفعي قد حوّلت المكان إلى كُتلٍ من اللّهب، فبدّد قليلاً من الظلام الذي انتشر في المنطقة..

تحرَّكنا قافلين إلى حيثُ تركنا السيَّارات في المكان الذي يبعُد نحو كيلومتر.. قطعنا هذه المسافة بصورة لا تخلو من عناء.. وسِرنا مُتراصِّين الواحد تلو الآخر، ودليلنا يُرشدنا إلي الطريق في المُقدِّمة، لا أدري كيف يتبيَّن الأشياء أمامه في وسطِ هذه العتمة.. كانت الشجيرات الصغيرة تتشابك في ملابسنا ونحن غير عابئين، لكن أحدنا يتوقف فجأة ليُزيح شوكة انغرست في قدمه، وأحياناً يرتطم جسده بصخرة صغيرة، فتخرُج ضحكة عفويّة مجلجلة من السائر بقُربه، وتبدو هذه الضحكة شيئاً غالياً في مثل تلك الظروف. وصلنا إلى السيَّارات وحشرنا أنفسنا فيها، وشعور جمعي يقول: «**ماذا لو أن قذيفة طائشة باغتت هذه الكتل البشريَّة المحشورة في داخل السيارات؟!**»..

هنيهةً، وتحرَّكت السيَّارات الثلاث، وبدأت الزَّحف ببُطء، ذلك لأنها تسير بدون أضواء، غير أن سائقيها يقومون بين فترة وأخرى بإشعال الإضاءة لمدة ثانية أو ثانيتين ليتسنَّى لهُم رُؤية الطريق الوَعِر أمامهم، لمسافةٍ تربو على المائتي متر.. وبهذا البُطء الشديد، قطعنا الثلاثين كيلومتراً وصولاً إلى مركز القيادة الذي انطلقنا منه في أربع ساعات تقريباً. وعند وصولنا إلى ذلك الموقع دلفنا إلى صالة طويلة، وشعرنا بالأمان عندما رأينا القنوات الفضائيَّة المُختلفة من خلال جهاز التلفزيون داخل الصالة، فانطلق لسان الجميع في ثرثرة بعدَّة لغات، ثمَّ شعرتُ بتخلفي المهني حينما هرع زملائي القادمون من "العالم الأوَّل" إلى أمتعتهم، وانتبذ منهم كلٌ مكاناً عن الآخر، وبدأوا في مخاطبة مراكزهم الرئيسيَّة بواسطة أجهزة التليفون التي تعمل بالقمر الصناعي، ينقلون إليهم مشاهدات الجبهة الأماميَّة، وكان عليَّ أن أضحك صامتاً لهذه المُفارقة الحضاريَّة!

في تمام الساعة الحادية عشرة والنصف، جيء إلينا بكميَّات وافرة من الطعام المُعَد جيدا على الطريقة الإريتريَّة، وكان طازجاً وشهياً، وفي تلك اللحظة بالتحديد، اكتشفتُ أنني لم أذُق أي شيء منذ أن تحرَّكنا من أسمرا، سوى المياه الغازيَّة، فعَجبتُ لكون أنني لم أشعُر مطلقا بالجوع، إلاَّ حينما وضعوا الطعام أمامنا، والذي التهمناه والتهمنا معه أحاديث مختلفة، حيث بدأ الكُلّ يُفضفضُون بما اختزنوه في دواخلهم من المواقف التي حدثت في الجبهة الأماميَّة، ولذلك بَدَت الجلسة دافئة وحميميَّة، مِمَّا يُؤكد بالفعل أن أرواح البشر هي جُندٌ مُجنَّدة، ما تعارف منها ائتلف.

بعد الطعام، أحضروا إلينا أسِرَّة ميدانيَّة مطويَّة، ولكنها سهلة التركيب، ومُنح كُلٌ مِنا بطانيَّتين للوسادة والغطاء، وتهيأ الجميع لأخذ قسطٍ من الراحة، فقرَّرتُ وزميل كيني أن ننام في الخارج، إذ كان الجو بديعا والسماء صافية مطرَّزة بالنجوم الكثيرة، وتلك مُتعة يندُر أن تجد لها مثيلاً في المدينة، فرُحتُ أتأمَّل في هذا المنظر، ورغم الإرهاق الشديد لم أستطع النوم.

فجأة امتلأت السماء فوقنا بأجسامٍ صغيرة نورُها ساطع، تتهادى رويداً رويدا في الفضاء، وما تلبث أن تنطفئ.. فسألتُ عنها أحد المُكلفين بحِراستنا، فقال:

«**إنها قنابل مضيئة يطلقها الإثيوبيون للاستكشاف**».. كان المنظر مثيراً، رغم سوء مقصده، فظللت أتأمّله إلى أن رُحْتُ في سباتٍ عميق..

صحوتُ بعد نحو ساعتين على إثر لسعات هواءٍ بـارد، فحملتُ سريري ووجدتُ لي مكاناً بين الزملاء داخل الصالون، وواصلت نومي.. في حوالي الساعة الخامسة والرُبع صباحاً، استيقظنا جميعاً على صوت انفجار ضخم، وفي واقع الأمر، لم يكن استيقاظاً طبيعياً، فقد وجدتُ نفسي منبطحاً على الأرض بعد أن فارق جسدي السرير، وخُيِّل لي أثناء نومي أن هذا الانفجار كأنما وقع فوق رأسي، وعلى ضوء خيوط الصباح التي بدأت تتسلل إلى الصالون، رأيتُ الزُملاء جميعاً وقد تكوَّموا كجسدٍ واحد.. التمعت العيون وكادت أن تخرُج من محاجرها، ثم بدأ ضحك خافت من الكُلِّ جرَّاء ردَّ الفعل التلقائي، لكنه كان ضحكاً أشبه بالأنين..

بعد دقائق معدودات، جاء من يُخبرنا أن الصَّوت كان لقنابل ألقتها طائرات أنتونوف إثيوبيَّة على مكانٍ قريب من موقعنا، وطُلِبَ منا أن نتهيَّأ للذهاب لرؤية ذلك الموقع..

تحرَّكنا بعد نحو نصف ساعة، وفي أقلّ من عشر دقائق، كنا في الموقع، فإذا به معسكرٌ مساكنه من الخيام، أعِدَّ على عجلٍ للعائدين الإريتريين الذين طردتهم السُلطات الإثيوبية، ويُسمَّى "ديدا لعلاي".

هناك رأيتُ ما لا يستطيع المرء أن يصفه.. كانت إحدى القنابل التي رَمَتها الطائرة الأنتونوف انشطاريَّة النوع، وقد وقعت على خيمة تقطنها أسرة، فقضت عليها بالكامل، امرأتان ورجُلان وطفل صغير لا يتجاوز عمره العشر سنوات، رأيتُهُ وقد انفصل رأسه تماماً عن جسده.. هالني هذا المنظر وسَرَت في جسمي رعشة قويَّة، واغرورقت عيناي بالدموع..

انشغل من كان بالمكان من الأهالي، الذين هرعوا إلى الموقع بإطفاء الحرائق التي كانت ما تزال مشتعلة حتى لحظة وصولنا، وبعضهم اجتهد في جمع بعض أشلاء القتلى وتغطية الجُثث، في حين راح زملائي يُسجِّلون الحادث بكاميراتهم التلفزيونيَّة، ويلتقطون صوراً فوتوغرافيَّة، أما أنا، فقد ظللتُ متجمِّداً في مكاني لا ألوي على شيء، كطفل تاه عن والديه في غمرة زحام..

جاءت من بعيد فتاة في العقد الثاني من عمرها، وكانت تنتحب بشدَّة، انتشلني صوت بكائها من وهدة موقف اللاحراك الذي تلبَّسني، فبدأتُ أتجوَّلُ في المكان وأفعل ما يفعله الآخرون، وهالني أن القنبلة قد طالت ممتلكات الأسرة البسيطة، فقتلت مواشيها.. حمارين وثلاث خرفان.. كانت الشظايا قد أحالت أجسادهم إلى غربال، ومن بين ذلك الركام، رأيتُ ديكاً يقفز هُنا وهناك، وكان الوحيد المُتبقي بعد هذه المجزرة.. قال لي أحد الزملاء لاحقاً: «**لعلَّ ذلك هو ديك الجن؟!**»..

حَمَلَ الأهالي الجُثث إلى مقبرة قريبة، فلحقنا بهم إلى هناك.. أجروا عليهم طقوساً كنسيَّة في كنيسة صغيرة تقع على طرف المقبرة، ثم بدأوا في مواراتهم الثرى، وأثناء ذلك - في حوالي الساعة التاسعة صباحاً- حدث هرجٌ في المكان على إثر غارة جويَّة أخرى قامت بها طائرتان من طراز "ميج"، فنُودِيَ على الجميع للاحتماء خلف أي ساتر.. فتشتتنا يُمنة ويُسرة، ولم يكن ثمَّة أي شيء يمكن أن يختفي بداخله أي منا غير الصُخُور والحجارة الكبيرة، إذ إن المقبرة قد أنشئت على رأس تلٍ جبلي، واكتشفنا أن ما فعلناه لا يُجدي فتيلاً، لكن كان يكفي فعل أي شيء لإقناع نفسك بصواب قرارك..

رأينا الطائرتين وهُما تُلقيان بحُمولتيهما على قرية تبعُد حوالي كيلومتر أو اثنين منا، شاهدنا ذلك بوضوح لأننا ننظر إليها من عَلٍ، وبعد أن هدأت الأنفاس قليلاً، قيل لنا إن هذه القرية هي "بادِمّي" ذاتها التي مَرَرنا بها بالأمس، وأكدوا أنه لا أحد فيها، مِمَّا يعني عدم حدوث خسائر بشريَّة، لكن الدخان الكثيف ظلَّ متصاعداً إلى السماء لمسافاتٍ طويلة.

رتبنا أوضاعنا لنعود مرَّة أخرى إلى الجبهة الأماميَّة.. فقد طلبَ بعض الزُملاء الذين يتعاملون مع القنوات التلفزيونيَّة الفضائيَّة أن يُصوِّروا القصف مباشرةً، وبالطبع هذا يتطلب العودة إلي الموقع الذي تنطلق منه المدفعيَّة الإريتريَّة، فسلكنا طريقاً آخر، وكان كل شيء فيه بذات النسق الذي شاهدناه بالأمس.. يُلفِت الأنظار أن حجم الحرائق في الحشائش والأشجار على جانبيه قد اتسع نطاقه، وبدأنا نسمع صوت القصف مُجدَّداً، يزداد كلما توغلنا، إلى أن وصلنا موقعاً يرابط فيه عدد من الجنود لا يزيدون على المائة.. كانوا منهمكين في تجهيزاتٍ عدة.. توقفوا قليلاً لرُؤية القادمين الجُدُد، ثم ما لبثوا أن واصلوا مهامَّهم، كأن وجودنا لا يعنيهم في كبير شيء.. كان هناك عددٌ من الدبَّابات المختلفة الأنواع وكذلك المدفعيَّة، وقطعٌ أخرى صغيرة من الأسلحة، وجميعها قد دُسَّت بعناية فائقة وسط الأشجار الكثيفة، وبعضها توسَّد حُفراً عميقة رُصَّت على جوانبها صُخُورٌ ضخمة.. تفرَّقنا في أنحاء الموقع، كلٌ يبتغي هدفاً..

رأيتُ بعض الزُملاء مشغولين بمعاينة نوعيَّة الأسلحة الموجودة، ويتحدَّثون عن أغراضها بدراية كبيرة، حتى ظننتُ أن لهُم مآرب أُخر!

تحدَّثتُ إلى الجنود.. بعضهم سبق له وأن خاض غمار حرب التحرير الأولى، وبعضهم كانت تلك هي التجربة الأولى له، وأذهلني أن جميعهم في روح معنوية عالية، رغم كآبة أجواء الحرب..

قيل لنا أن نستعد للتصوير، ثم انطلقت المدافع.. يشعر المرء للمرَّة الأولى أن قلبه قد سقط بين قدميه، ولكن بعد فترة قصيرة يُصبحُ ردَّ الفعل طبيعياً.. وأدركتُ آنئذٍ معني أن يتأقلم الإنسان على كل الظروف.

ظلّ القصف مستمرا زُهاء نصف الساعة، وعندما سكتت المدافع، ساد سكونٌ أشبه بصمت القبور.. غادرنا الموقع، لكن اذاننا كأنما بها ثقل، الكُل يشكو من بُطء سمعه، والذي استمرّ لفترة طويلة من الوقت.

عُدنا أدراجنا إلى المكان الذي أعد لنا، وقضينا سحابة يومنا ذاك فيه، ونَعِمَ جميع الزملاء بخِدمة راقية من المأكل والمشرب والراحة، الأمر الذي لم أتوقعه في مثل تلك الظروف، وفي الصباح الباكر من اليوم الثالث، قيل لنا إننا سنعود إلى العاصمة أسمرا.

توزّعنا على السيّارات الثلاث بنفس الطريقة التي أتينا بها، ثم تحرّكنا وتوقفنا عند المركز الذي خلته قبلا بأنه مركز القيادة، وانتظرنا لبعض الوقت ريثما يتم تبليغ المناطق التي سنمُرُّ عليها، وكذلك تجهيز السيّارات بما تحتاجه من وقود او غيره.

بعد فترة قصيرة، طاف علينا الموجودون بالمكان وألقوا علينا تحيّة الوداع، واعتذر بعضهم إن كان ثمّة تقصير قد حدث، وطلبوا من الجميع أن ينقلوا بأمانة ما شاهدوه دون زيادة أو نُقصان.. شعرتُ آنذاك أن هذه الزيارة قد ألقت بعبئها على المسئولين في هذه الجبهة، ذلك أن تأمين سلامة هذا العدد الكبير من الصّحفيين ليس بالأمر السهل، لا سيّما وأن الأمر ينطوي على مُخاطرة كبيرة، فالزيارة لم تتم بعد توقف القتال، إنما أثناء القصف المُكثف الذي ذكرناه، ولهذا فالأمر انعكس إيجابيا على كُلّ الزملاء الذين كانت نشوة الإنجاز تشع من وجوههم.

انطلقنا نحو أسمرا، ولعلّ معاناة الجبهة الأماميّة أوحت لي بأن لطريق أكثر يُسرا عنه في المرّة السابقة.. انهمك رفاقي في السيارة بالحديث باللغة التيغرينيّة بينما المذياع يبث الأغاني الوطنيّة بصورة متواصلة، وظلّ خيالي يجتر مشاهدات اليومين السابقين، وشعرتُ بأنها انطبعت في عقلي ووجداني، وتساءلتُ مرارا مع نفسي، إن كان ما سنكتبه ونبثه يمكن أن يحرّك ساكناً في كواليس صانعي القرار في المجتمع الدولي، بحيث يحرّضهم علي فعل شيء يوقف هذه الحرب اللعينة؟!

مررنا بذات القُرى في الريف الإريتري، وفي المناطق الزراعيّة رأينا من بعيد بعض الاهالي مشغولين باستصلاح أراضيهم، ومررنا علي آخرين يرعون مواشيهم.. يقفون لبرهة ويُحدِقون في السيارات العابرة، إلى أن يحول الغُبار الكثيف الذي تخلفه من ورائها بينهم ورُؤيتها، وبالطبع تسأل نفسك أيضاً، إن كان هؤلاء مهمومين بما يجري في جبهات القتال؟!

كانت رحلة العودة عبارة عن تكرار لسيناريو رحلة الذهاب، مع فارق في الأشياء التي تتحرّك وتتصادم بعُنف في العقل والوجدان، وكلها عبارة عن أسئلة

لولبيَّة.. السُؤال لا يُفضي إلي إجابة، إنما يتفرَّع إلي عشرات الأسئلة الصغيرة، ولا رُدود شافية تهدِّئ الخواطر، وتُبعِد القلق عن النفس.. كأني بالمواطنين الذين يستوقفون أنفسهم في المُدُن والأرياف حينما تعبُر بهم السيّارات القادمة من جبهات القتال، وكأني بلسان حالهم يسأل من بداخلها عمَّا رأوا وشاهدوا هناك؟!

المواطن يعيش الحرب نفسياً في هذه المنطقة، ولا أثر مادياً لها سوي متابعة ما يجري في الجبهات عبر الالتصاق الحميم بجهاز الراديو، يكاد يصدِّق كل ما يبث من خلاله.. تلك عادة ورثها المواطنون الإريتريون من تجربتهم السابقة إبان حرب التحرير.

عندما وصلنا إلي العاصمة أسمرا - إلي المكان الذي سبق أن انطلقنا منه- كانت شمس اليوم قد أذنت بالمغيب.. لكن شمس الحرب ما تزال ساطعة، تكوي بلهيبها الحار كلا الطرفين اللذين دفعا ضريبة قاسية في البشر والموارد، بغضّ النظر عمَّن المُخطئ ومَن المُصيب.. المهم أن ثمَّة ضريبة قد دُفِعَتْ – وما تزال تُدفع- وهذا ما سيكون على حساب التنمية المستقبليَّة للشعبين.

غداً عندما يتوقف هدير المدافع، سيجلس كل طرفٍ أمام تقارير ضخمة، هي حصيلة هذه الحرب في كل شيء.. وعندئذٍ لات ساعة مندم!

فبراير (شباط) ١٩٩٩

عصب.. مرآة الأزمة..

"لا يُمكِنُكَ الجُلُوس عَلَى الحِرَابِ طَوِيلاً"
نابُلْيُون بُونَابَرْت

في نهاية الأسبوع الثاني للجولة الثانية من الحرب التي بدأت بمحور "مرب- ستيت" في جبهة "بادِمِي"، امتدَّ سعيرها لتشمل الجبهة المُسمَّاة بـ"جبهة بوري"، أو الجبهة الجنوبيَّة بالنسبة لإريتريا، والتي تضُمُّ ميناء عَصَبْ، الميناء المُطل على البحر الأحمر، مِمَّا يعني أن النزاع قد أصبح قاب قوسين أو أدني من الممر الاستراتيجي المائي الهام، وكان ذلك مدعاة لتزايُد الاهتمام الإقليمي والدولي عمّا كان عليه الحال في بداية الحرب، وعبَّرت عن ذلك وسائل الإعلام التي بسطت مساحة أكبر في تغطيتها للحَدَث، وهذا بالطبع يُؤكد أن العالم تحكُمه في الأساس المصالح الاقتصاديَّة كمدخلٍ للاهتمامات السياسيَّة، وأن أجندة الديمقراطيَّة وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعيَّة تأتي تالياً لتلك المصالح، حتى وإن علت نبرتها وطغت الخطابة حولها.

استجابت السُلطات الإريتريَّة لرغبة عددٍ وافر من الصحفيين والإعلاميين، الذين وفدوا إلى المنطقة لتغطية الحَدَث بالسَّماح لهُم لزيارة بجبهة الجنوبيَّة. وكان قد زاد عددهم عن المجموعة التي زارت جبهة "بادِمِي"، غير أن المُلاحظ ضعف استجابة وسائل الإعلام العربيَّة، فلم يكُن هناك قادمٌ جديد سوى قناة 'الجزيرة' الفضائيَّة.

في الصباح الباكر، حَمَلتنا طائرة عتيقة تابعة لشركة طيران البحر الأحمر إلى عَصَبْ، خُيِّل إليَّ إنها تسبَح ببُطءٍ في الجو، فقد استغرقت الرحلة أكثر من ساعة، قضيناها تارة غارقين في بُحور الصَّمت، وتارةً أخرى في الثرثرة التي تتصل بالأزمة.

وصلنا مطار عَصَبْ، الذي يبعُد نحو ٦ كيلومترات عن وسط المدينة، مبانيه بسيطة - يبدو أنه تحت الإنشاء- ولا شيء يُميِّزه سِوَى طول مُدرَّج هبوط وإقلاع الطائرات، وهذا ما يُفسِّر الطابع العسكري الاستراتيجي لهذه المدينة أثناء حرب التحرير.

انطلقنا بإشراف مسئولين كانوا في استقبالنا بعدَّة سيارات إلى وسط المدينة. كانت بالنسبة لي، هي المرَّة الثانية التي أزورُ فيها مدينة عَصَبْ، فقد كانت الأولى بعد نحو شهرين من اندلاع الحرب، وأيضاً مع زملاء صحفيين وعدد من العاملين في منظمات دوليَّة، وكانت الزيارة الأولى بغرض الوقوف على أحوال عدة آلاف من المواطنين الذين أبعدتهم السُّلطات الإثيوبيَّة قسراً كإجراءٍ انتقامي.

بعد وُصُولنا لمكان إقامتنا، خرجنا في جولةٍ حرَّة لرُؤية معالم المدينة، وما يُلفِت الانتباه، أنَّ دمار حرب التحرير الأولى الذي حاق بالمدينة كان كبيراً، وأن الثماني سنوات - التي هي عُمْر الاستقلال- لم تستطع أن تُزيل البُؤس والتخلف الذي رتعت فيه المدينة زمناً طويلاً. فما تزال الكثير من المباني والمنشآت تشكو التصدُّع، وكذا الطرق الرئيسيَّة والفرعيَّة، غير أن اجتهاد السُّلطات تبَدَّى جلياً في تحديث الميناء، باعتباره الشريان الذي يمدَّ المدينة بكُلِّ أسباب الحياة.

في جولتنا الحُرَّة تلك، لفتت الانتباه أيضاً بصمات الاستعمار الإثيوبي السابق في محو الهويَّة الإريتريَّة عن المدينة وإحلال الهويَّة الإثيوبيَّة، وقد اتضح ذلك في عدَّة أشياء، من بينها أن اللغة الأمهريَّة هي اللغة السائدة، بل هي لغة المخاطبة الأساسيَّة، ثُمَّ إن ٧٠% من سُكانها البالغ عددهم نحو ٦٠ ألفاً، هُم من الإثيوبيين.

ترسيخاً لهذه الهويَّة، تبُث مُكبِّرات الصوت في الفنادق والمطاعم والملاهي والحانات وكل الأماكن العامَّة أغاني إثيوبيَّة، ولا حساسيَّة في هذا الأمر، إذ أن الحرب لم تغيِّر في هذا الواقع شيئاً، وبدا لنا أن السُكَّان الإثيوبيين يعيشون نمط حياتهم المعهود، وكأنما هذه الحرب لا تعنيهم في شيء، بل يوحي لك البعض بأنها لا تسبِّب له أدنى نوعٍ من أنواع القلق والهواجس المزعجة. لكن الرُّكود الاقتصادي الذي خيَّم بظلاله على المدينة بعد توقف الميناء عن مزاولة نشاطاته المعهودة، دفع البعض إلى المُغادرة الطوعيَّة، واستسلمت أعدادٌ كبيرة إلى حياة البطالة والتسكُّع في الطرُقات والأماكن العامَّة.

يسأل المرء نفسه: ماذا لو أن ضغائن الحرب دفعت البعض إلى إشعال حرب أهليَّة داخل هذه المدينة؟! كنتُ قد توجَّهتُ بسؤالي هذا إلى أحد مسئولي المدينة، الذي أجابني بكُلِّ ثقة واطمئنان بأن كل شيءٍ تحت السيطرة التامَّة، ولم يشأ الدخول في تفاصيل كثيرة.

قضينا ليلتنا الأولى تلك في هدوءٍ متوتر، ومُكبِّرات الصوت التي تنبعث من أماكن عدة محيطة بمكان إقامتنا، تتداخل أصواتها، لكأنما تُصِرُّ على كسر رتابة ذلك الهُدوء.

أخبرونا في الصباح بأننا سننتقل إلى الجبهة الأماميَّة، ولأن عددنا كان كبيراً، انطلقت بنا سيَّاراتٍ عِدَّة، اجتهد المسئولون في إخفاء معالمها وفقاً لطبيعة

الجبهة، فسلكنا الطريق المُسفلت المُتجه غربا، والذي يقود إلى العاصمة الإثيوبيَّة أديس أبابا، لكنه الآن يقود إلى مصيرٍ آخر..

تركنا المدينة خلفنا، وبعد نحو عشرين كيلومترا، بدأت الدفاعات الإريتريَّة تتناثر ذات اليمين وذات اليسار بأشكال هلاليَّة متباعدة عن بعضها البعض، غير أننا حينما قطعنا نحو ٧٠ كيلومترا ودخلنا الكيلومتر الأخير، الذي يرسم النقطة الحدوديَّة بين البلدين، اتخذت الدفاعات شكل سُور بحائطين متوازيين من الحجارة الصخريَّة الضخمة، يفصل بينهما حوالي المتر وبارتفاع مترين، وبطول يبلغ نحو عشرات الكيلومترات، أي على طول الجبهة الممتدَّة مع إثيوبيا، يزحف في تلك الصحراء ملتويا كالثعبان.. أحيانا يتخذ شكلاً مستقيماً، ثم ينحدر حينا آخر من بعض المناطق نحو وادٍ سحيق، ويعلو في مناطق أخرى مخترقا التلال والجبال الصغيرة.

ينبعج الخط الثاني الخلفي في أماكن متفرِّقة، فيتسع عدَّة أمتار حسب مقتضيات الحاجة في تخزين الآليَّات والمُعدَّات والمُؤن، وما بين هذين السورين يتوزَّع آلاف المقاتلين الإريتريين - فتيات وفتيانا.. بعضُهم كانوا جنودا في الجيش الشعبي، وبعضهم سبق أن تمَّ تسريحهم وأعيدوا للخدمة مرَّة أخرى، إلى جانب عدد كبير من الذين تمَّ تجنيدهم مُؤخرا في إطار برنامج الخدمة الوطنيَّة الإلزاميَّة في معسكر "ساوا"..

توغَّلت بنا السيَّارات في الداخل، بعد أن انحرفت يميناً عن الجانب الرئيسي، وسارت محاذية لسور الدفاعات، وكان الطريق وعراً وشاقاً، ولمسافة تزيد عن الساعتين، لم تفارقنا هذه الدفاعات، حتى اعتقد بعضنا بأننا سنقف فجأة أمام الدفاعات الإثيوبيَّة، وذلك نظرا للطبيعة الجغرافيَّة للمنطقة، حيث يصعُب تمييز المواقع بالنسبة لمن لا يملك خبرة مثلنا، فليس من شيء تراه العين المجرَّدة على مدى الرؤية، سوى تلك الصخور المتفرِّقة، والتي تتجمَّع في بعض المناطق فتكون جبالاً تكبر مرَّة وتصغُر مرَّات، علاوة على الكثبان الرمليَّة التي تحتويها من كل الجهات، وتظهر على استحياء أشجار صحراويَّة قليلة تقف، كأنما تقاوم الطبيعة، بعضها تيبَّس حتى كاد أن يماثل الصُخور التي ترقد بجانبها في الشكل واللون.

بعد مسيرة نحو ٣٠ كيلومترا في هذه الطرقات المُتعرِّجة، وقفنا أمام الطائرة المروحيَّة المُدرَّعة التي أسقطها الإريتريون أمام دفاعاتهم على بُعد أمتارٍ قليلة، وكانت قد تشظَّت إلى قطع صغيرة وتبعثرت في أرجاء المكان، بينما احترق الجُزء الأكبر الذي يحتوي المحرِّك، واختلطت جُثتان بحطام الطائرة، قيل إن إحداهما لقائدها النقيب اشيتو بفلي.. تفحَّصناهُما وقد تفحَّمتا تماما.

تجوَّلنا بعدئذٍ في الدفاعات، وبدأنا نتحدَّث مع المُقاتلين ونلتقط لهُم الصُور، ولمستُ أن سُقوط الطائرة قد رفع من معنوياتهم، وبثَّ في نفوسهم نشوة النصر والتفوُّق.

كانت الجاهزيَّة القتاليَّة لدى المقاتلين تتبدَّى في أسطع تجلياتها، ونحن نسير بينهم كانت وجوههم مُصوَّبة شطر الجبهة الإثيوبيَّة، بعضُهُم يحمل نظارات ميدانيَّة لتقريب الرؤية، وبواسطة تلك النظارات تسنَّى لنا رؤية بعض تفاصيل ما يجري في الجبهة الأخرى، كحركة الآليَّات الكبيرة، والمواقع، لا سيَّما وأن المسافة التي تفصل بين الطرفين ليست بكبيرة.. كان بعض المقاتلين يتسامرون، ولم يُظهروا اهتماماً بوجودنا اللافت للنظر، وبعضُهُم كان منهمكاً في تنظيف وتركيب الأسلحة.

قضينا عدَّة ساعات في تلك المواقع، ومن حُسن حظنا أن الإثيوبيين لم يقصفوا من البُعد، وبالتالي لم يُبادلهم الإريتريون الردَّ على القصف، وكُنا قد أخبرنا سلفاً باحتمال أن يحدُث ذلك، نظراً لحركة السيَّارات التي تقلنا وما تثيره خلفها من غبارٍ كثيف يمكن أن يلفت الانتباه، ولذلك كانت السيارات تسير متباعدة عن بعضها تحوُّطاً.

عندما أزمعنا الرحيل، كانت الشمس بأشعَّتها الذهبيَّة تميل نحو الغروب، وكان بحقٍ منظراً خلاباً يبعث البهجة في النُفوس، لكنك إزاء جو الحرب المُخيِّم على الجبهة، لن تستطيع أن تتأمَّله بهدوءٍ وطمأنينة!

بعد عدَة كيلومترات في رحلة العودة، هبط الظلام على المنطقة، وأكسبها سكوناً ممزوجاً بشيءٍ من الخوف والحذر، فبدأت السيَّارات تسير ببطءٍ شديد، مثلما حدث في الجبهة الأخرى.. كان سائقوها يُضيئون الأنوار لثوانٍ معدودات بحيث تتيح لهُم رؤية الطريق أمامهم، وبين مسافة وأخرى كان يظهر لنا أحد الجُنود ويُضيء من بعيد بطاريَّة صغيرة للاستدلال عليه، وبعد محادثة قصيرة مع السائق، يذهب كلٌ في طريقه، وكان واضحاً أنه يُؤكِّد للأخير سلامة الطريق الذي يسلكه، حيث أن الطرق متشعبة ومتشابهة.

وصلنا إلى المدينة ليلاً، وراح الزُملاء الذين يبثون أخبارهم طازجة يُداعبون مُعدَاتهم، ولستُ في حاجة للقول بأن عظمة الإنجاز في مجالٍ كهذا دائماً ما تكون البلسم الذي يزيح كل تعبٍ وعناء!

في صباح اليوم التالي، قصدنا محطة المياه الرئيسيَّة التي تغذي مدينة عَصبْ وضواحيها، وكان ذلك وسط أنباءٍ صدرت عن أديس أبابا قُبَيْلَ قدومنا إلى عَصبْ تُؤكِّد أن طيرانها قصف المحطة ودمَّرها تدميراً كاملاً. ولكن عند وصولنا لها، وهي تبعُد نحو ٢٠ كيلومتراً من المدينة، على ذات الطريق الرئيسي المُؤدِّي إلى الجبهة مع انعطافة نحو الشمال لمسافة كيلومترين، ومن بعيد رأيناها تقف وحيدة في ذلك المكان الصحراوي، بمعنى أنها بالفعل يمكن أن تكون هدفاً واضحاً لا يحتاج إلى كبير عناء. وعند وصولنا، كان المُذهِل أن المحطة لا تتوفر فيها أي حراسة عسكريَّة، لا جنود ولا معدَّات، فقط وجدنا رجُلاً مُسناً ومعه شابان آخران كانوا هُم بمثابة الطاقم الفني الذي يدير المحطة.

لم تكن المحطة في حدِّ ذاتها شيئاً ضخماً، فهي عبارة عن حوش مساحته ٥٠٠ متر مربع، تحيط به الأشجار من كل جوانبه وتقوم مقام سورٍ له، وفي داخله غرفتان، إحداهما لضخ المياه من البئر الجوفيَّة، والأخرى للتحكُّم.. لم نجد أثراً لأي دمار أصاب المحطة، لكن العاملين أشاروا إلى المكان الذي سقطت فيه قنبلتان وكان يبعد نحو ٣٠٠ متر من المحطة، فذهبنا إليه ووجدنا القنبلتين اللتين ألقتهما طائرة من طراز "أنتونوف" وقد حفرتا حفرتين عميقتين، وقللت الرمال المحيطة من حدَّة الانفجار.

كانت هناك مأساة إنسانيَّة تقبُع في مكانٍ غير بعيد من المحطة، وتمثلت في معسكرٍ أعِدَّ للاجئين الصوماليين، الذين دفعت بهم المحنة التي تجتاح بلادهم منذ عقدٍ من الزمان إلى إريتريا، فخصَّصت لهُم السُلطات ذلك المعسكر الذي يلوذ به نحو ٢٥٠٠ لاجئ، معظمهم من الأطفال وكبار السن، تنعكس على مُحيَّاهم شتى أنواع البُؤس، ومجرَّد الاستماع إلى مشاكلهم يبعث الأسى ويقطع نياط القلوب، ولا يدري أحدٌ كيف سيكون الوضع إذا ما سقطت هذه القنابل على مساكنهم العشوائيَّة التي بُنيت من القش وفروع الأشجار، وغطيت بالخيش كدثرٍ واقٍ لها من تقلبات الطبيعة.

حكوا لنا عن الخوف والذعر الذي أصابهم عندما سمعوا صوت انفجار القنابل، كان كبارهم يتحدَّثون بضيقٍ وحنقٍ بالغين، وصغارهم يتجوَّلون ببراءة شديدة بين الجموع التي خرجت من مخابئها، وما فتئت تبُث شكواها ولوعتها، ظناً منها أن الزملاء جاءوا حاملين لهم بشارة الخلاص من عتامة المنافي. فقد اعتاد هؤلاء منذ أن تشتت بهم السُبُل على أنَّ كل ذي سحنة بيضاء هُو مصدرٌ للخير والأمل، بما تحمله أياديه البيضاء من غوثٍ، وقد هالني منظر سيِّدة طاعنة في السن وهي تحمل طفلاً كسيحاً عمره خمسة عشر عاماً تقريباً لتضعه كالجثة الهامدة بين أرجُل الزُملاء وهي تتحدَّث بأعلى صوتها باللغة الصوماليَّة التي نجهلها، مِمَّا حدا بأحد مُحدِّثينا من الذين كانوا يشرحون أحوال اللاجئين في المعسكر أن ينتهرها بصورة أقرب إلى الزَّجر.. كانت تلك السيِّدة بالطبع تبُث شكواها ومحنتها وقد توسَّمت خيراً في زائري المعسكر.. كنتُ أتفرَّس في وجوه الأطفال الهائمين بلا هدف، وكأني بالشاعر العربي القديم قد عناهم حينما قال:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ
زغبُ الحواصل لا ماء ولا شجر

غادرنا المعسكر متَّجهين نحو الجبهة مجدَّداً.. عند وصولنا لأوَّل نقطة بعد نحو ساعة، سمعنا صوت طائرات، وبعده مباشرةً سمعنا صوت انفجار ضخم، فقيل لنا إن الطائرات الإثيوبيَّة حاولت قصف محطة المياه للمرَّة الثانية، فقرَّرنا العودة إليها مرَّة أخرى، وبينما السيارات تنهب بنا الطريق المُسفلت الذي خلا من أي سيارات قادمة من الناحية الأخرى، كان تفكيري قد تركَّز في وضع أولئك

اللاجئين، وتمنيتُ صادقاً ألا تكون القنابل التي ألقيت للمرَّة الثانية قد أصابت منهم أحداً، وعند وصولنا اتضح لنا أنها سقطت في ذات مكان القنابل الأولى، وقال لنا العاملون في المحطة إنهم رأوا الطائرات وهي تلقي بقنابلها من ارتفاع شاهق، ولم يجدوا بُداً من أن يتحصَّنوا بمباني المحطة نفسها!

اتضح لنا أن الطائرات الإثيوبيَّة جعلت من تدمير محطة المياه هدفاً استراتيجياً، غير عابئة بضربها أهدافاً مدنيَّة، وكان الجميع يتساءلون: ماذا لو أن هذه المحطة دُمِّرت بالفعل، لا سيَّما أن الماء في "عَصَبْ" هو عَصَبُ الحياة بالفعل، ولا توجد أي محطة أخري تقوم بذات المهمة؟! والسؤال الآخر، الذي يأتي إلحاقاً للسؤال السابق: ألم تفكر الحكومة الإثيوبيَّة في وضعيَّة المُواطنين الإثيوبيين الذين يُشكِّلون غالبيَّة سُكَّان مدينة عَصَبْ، إذا ما آل الحال إلى معاناة بسبب انقطاع مياه الشرب؟!

عُدنا مرَّة أخرى، وعند وصولنا إلى الموقع الأوَّل، بدأ الإثيوبيون في القصف بعيد المدى، فطُلِبَ منا الدخول إلى مخبأ، وكان عبارة عن كوبري على الطريق الرئيسي، سُدَّ جانباه بما يسمح بدخول فرد واحد.

ضمن المُفارقات، في داخل المخبأ بدأت إحدى الإريتريات في صنع قهوة لنا بطقوسها الإريتريَّة المعتادة، وكان القصف ما يزال متواصلاً، وفي رُكنٍ قَصِي من المخبأ كان بعض المقاتلين يلعبون الورق "الكوتشينة"، فبدا كل ذلك مثيراً، خاصة لزملائي الأجانب الذين أخرجوا كاميراتهم وأخذوا يلتقطون الصور.

قدَّم لنا المُقاتلون القهوة، ثم الشاي، وقطعاً من الحلوى والبسكويت، وبدوا سعيدين بوجودنا بينهم.. عُدنا إلى المدينة وظللنا في مكان إقامتنا ما تبقى من اليوم، وفي حوالي الساعة العاشرة ليلاً، سمعنا انفجاراً ضخماً ارتجَّت له نوافذ وأبواب الفندق، وخرجنا إلى الشارع العام فتجمَّع بعض المواطنين وهُم يتساءلون مثلما تساءلنا نحن، وبعد نحو نصف الساعة تقريباً، جاءنا أحد المسئولين وقال إن الطيران الإثيوبي قصف للمرَّة الثالثة محطة المياه، فأبدى بعض الزملاء الرَّغبة في الذهاب لمعاينة ما حدث، وانطلقت بنا سيارة واحدة، لأن بقية الزملاء آثر البقاء ربَّما ضجراً، أو لانعدام الرغبة في رؤية شيء ليست فيه الإثارة التي يشتهون.

عند وصولنا، كانت القنابل قد سقطت أيضاً بعيداً عن المحطة ومعسكر اللاجئين، وكانت النار ما زالت تشتعل فيها لحظة وصولنا، فطلب منا ألا نقترب أكثر مِمَّا فعلنا، لأنه قد تكون فيها بقايا لم تنفجر بعد.. عُدنا منتصف الليل إلى الفندق، ونُمتُ ليلتي مُؤرَّقاً، أبحثُ عن إجابة لفعلٍ طائشٍ لا يمُتَّ بصلة لاستراتيجيَّات أي حرب، حتى ولو فاحت قذارتها!

في اليوم التالي، ذهبنا إلى الميناء لمُعاينة تأثير الأزمة عليها، وابتداءً من البوَّابة الرئيسيَّة لم نجد أياً من المظاهر العسكرية التي توحي بوصفٍ استثنائي، فقد

كان يقف عليها حارسان كبيران في السن، ويرتديان زياً مدنياً، ولا يستطيعان التدقيق حتى في هويّات الذين يودون العبور إلى داخل الميناء.

كانت مرابط السفن التي بلغت نحو الثمانية عشر مربطاً تقف دليلاً على تداعيات الأزمة وانعكاساتها الاقتصاديّة، فقد خلت تماماً من البواخر والسُفُن التي تحمل وتفرّغ الصادرات والواردات، عدا باخرة واحدة شاهدناها وهي تستعد للمُغادرة، وسألنا السيد عبدالقادر عثمان، مدير العمليات بالميناء فقال: «**هذه واحدة من أربع سفن تشكّل الأسطول البحري الإريتري، كانت اثنتين منهما تملكهما الجبهة الشعبيّة لتحرير إريتريا قبل الاستقلال، والأخريان اشترتهما الحكومة لاحقاً**».

يتوسّط الميناء المدينة القديمة، وتبلغ مساحته ما بين ٥- ٧ كيلومترات، وهو أكبر من ميناء مُصَوّع، ووفقاً لعدد مرابطه، يمكن أن يستقبل ثماني عشرة باخرة تجارية في وقت واحد.

يقول السيد عثمان: «**قبل النزاع، كانت إثيوبيا تستحوذ على ٩٥% من الخدمات التي يُقدّمها الميناء، وبدأت أديس أبابا تقلل من استخدامها للميناء تدريجيا منذ أن أصدرت إريتريا عُملتها الخاصة في نهاية العام ١٩٩٧، ومنذ الشهر الأول من عام ١٩٩٨ بدأت إثيوبيا في استخدام ميناء جيبوتي، وأنهت تعامُلها مع ميناء عَصَبْ في مارس (آذار) من العام نفسه، باستثناء القطاع الخاص الذي واصل استخدامه للميناء، حتى انفجار الأزمة في مايو (أيار) ١٩٩٨**».

أكد السيد عثمان أن البواخر التجاريّة توقفت تماماً إثر التهديدات الإثيوبيّة بعد اندلاع النزاع، باستثناء الأسطول الإريتري الذي ظلّ يعمل بلا توقف في استيراد البضائع إلى إريتريا وتصدير الملح، وهي السلعة الوحيدة التي تصنعها عَصَبْ وتصدّرها عبر الميناء.

توجد في الميناء مراكب صغيرة مخصّصة لحمل الركّاب بين عَصَبْ ومُصَوّع بمعدّل ثلاث رحلات أسبوعياً، وأيضاً لا يوجد أي مظهر عسكري داخل الميناء، فلا أثر لآليّاتٍ أو مُعدّات عسكريّة، ثقيلة كانت أم خفيفة، وقال السيد عثمان: «**ليس هناك ما يستدعي، فهي بعيدة عن مناطق النزاع الحدوديّة، على الرغم ممّا يتردّد في وسائل الإعلام بأنها هدفٌ محتمل للإثيوبيين.. نحن نعرف كيف نحمي كل شبر في بلادنا**».

البطالة التي شاهدناها كانت إحدى إفرازات خفض خدمات الميناء، فقد مَنَحَت إدارته العاملين فيه إجازة مفتوحة، وتبلغ نسبة العمال الإثيوبيين في الميناء نحو ٧٥%.. خرجنا من الميناء إلى الشارع العام مرّة أخرى، وتحدّثنا إلى مواطنين من الجنسين - وكذلك مسئولين- للتعرُّف أكثر على هذه المدينة التي تعيش الأزمة بالصّمت والصبر والانتظار.

خُيِّل إليَّ أن هذه المدينة هي مستعمرة إثيوبيَّة بطريقة رضائيَّة، فعلاوة على ما سلف ذكره، فقد أكَّد لنا أحد المسئولين أن هناك نحو ٦٠ مدرسة من المراحل المختلفة، يؤمها نحو ثلاثة آلاف طالبٍ، يتعلمون المنهج الدراسي الإثيوبي تحت إشراف مدرّسين إثيوبيين، تعاقدوا مباشرةً مع حكومتهم للعمل في عَصَبْ.. هؤلاء تحدثنا إليهم، وقد أصبحوا يعيشون ضَيَاعاً مستتراً بعد انقطاع رواتبهم، وغادرت قلة منهم إلى إثيوبيا طوعاً عبر الميناء عن طريق جيبوتي.

لو قُدِّر للحكومة الإريتريَّة أن تتعامل برُدود الفعل، وقامت بطرد تلك النسبة العالية من الإثيوبيين المقيمين في عَصَبْ - مثلما فعلت إثيوبيا إزاء الإثيوبيين من ذوي الأصول الإريتريَّة- لحدثت كارثة محققة يمكن أن تشعل حرباً أهليَّة في هذه المدينة، بل ماذا لو حدث الأمر نفسه في مُدُنٍ أخرى، كأسمرا العاصمة التي تعِجُّ بأضعاف أضعاف الإثيوبيين المُقيمين في عَصَبْ؟!

كانت مدينة عَصَبْ تتصل هاتفياً بالعاصمة أسمرا وبقية المُدُن الإريتريَّة بواسطة الاتصالات المرتبطة مع أديس أبابا، وعندما قامت هذه الأخيرة بقطع الاتصالات بينها وبين إريتريا، انعكس ذلك بالدرجة الأولى على عَصَبْ التي أصبحت مقطوعة تماماً عن بقيَّة المُدُن، ولا سبيل للاتصال بها إلاَّ من خلال هاتفٍ يعمل بالأقمار الاصطناعيَّة، متوفرٌ فقط عند إدارة الميناء.

إن محو الهويَّة الإثيوبية عن مدينة عَصَبْ بعد أن تتوقف هذه الحرب، يحتاج إلى جهدٍ كبير، ولكن بصورةٍ سلسة تُبقيها مدينة للتآلف بين الشعبين، رغم الجراح التي تفتقت، وفي نفس الوقت، تعيد إليها هويَّتها الإريتريَّة التي حاولت الأنظمة الإثيوبيَّة المتعاقبة طمسها. ومعروف أن هذه الأنظمة ما فعلت ذلك إلاَّ لتمسُّكها المستميت بهذه المدينة، التي كان يمثل ميناؤها لإثيوبيا ثغراً تُقَبِّل الدُنيا من خلاله، وإذا ما كان ذلك حافزاً لإثيوبيا في الماضي القريب لاحتلالها إريتريا، ففي التقدير الآن أن عَصَبْ تظل أحد الأسباب المستترة في الحرب الثانية بين الطرفين، مثلما ورد ذكره.

إن كان الأمر كذلك، فهذا يُعتبر شيئاً عصياً، بعد أن نالت إريتريا استقلالها، وأصبحت عضواً في المُجتمع الدولي، الذي لا يستطيع الصَّمت على أن تجرؤ دولة بقضم دولة أخرى، أو جزء من ترابها بسذاجة واستغفال.

كانت هناك أسئلة كثيرة تتزاحم في الخاطر، ولم ينجح أزيز محرِّكات طائرة البحر الأحمر العتيقة في أن يقطع استرسالها على مدى زمن رحلة العودة إلى أسمرا، ولعلني وصلتُ إلى قناعة في خِضَمِّ تدافُع هذه الأسئلة، ذلك أن إثيوبيا بعد اندلاع الحرب، ما فتئت تبحث عن ميناءٍ بديل، ووجدت ضالتها في جيبوتي إلى جانب محاولات في موانئ أخرى في المنطقة، كميناء "بَرْبَرَة" في جمهوريَّة أرض الصومال، ومُومباسَّا في تنزانيا، وبورتسودان في السُّودان، وكلها محاولات

لم تُثمر شيئاً لأسباب اقتصاديَّة وجغرافيَّة. غير أنني بقناعة كاملة أستطيع أن أؤكد أنه مهما كانت النتائج التي يمكن أن يُسفِرَ عنها هذا النزاع، فلا منا □ مُطلقاً لإثيوبيا مستقبلاً من العودة لاستخدام ميناء عَصَبْ. ويبقى السؤال الذي لا يستطيع المرء التكهُّن بإجابته، هو: **«هل تظل عَصَبْ مدينة إريتريَّة القلب وإثيوبيَّة الهوى بعد أن انكسر الإناء واندلق الحليب؟!»**..

فبراير (شباط) ١٩٩٩

obeikandl.com

ظُرُونا.. المَوتُ المَجَّانِي..

"إنَّ أسْوَأ القادَة العَسْكَريين في التاريخ أولئكَ الذين يَختارُون إمَّا الأهْدَافَ السَّهلَة أو الأهدَاف المُستحيلَة"

ونِستُون تشِرشِل

يزداد عدد الصَّحفيين الذين يُغطون هذا الحَدَث إعلامياً وينقُص تبعاً لطبيعة الحرب المُتواترة نفسها، فهي تندلع لعدَّة أيام في جبهةٍ، ثم تتوقف لفترةٍ من الزمن، وما تلبث أن تتجدَّد المعارك في جبهةٍ أخرى، وتتوقف أيضاً لفترةٍ من الزمن، وهكذا دواليك.. فهي لم تكُن حرباً متصلة، ولا في جبهةٍ واحدة، وذلك يعني أنها حربُ إنهاكٍ للقُدرات والمَوارد واستنزافٌ بَشَرِي بالدرجة الأولى، وهذا ما أراده تحديداً الطرف الإثيوبي، نظراً لحساباته في قلة عدد سُكَّان إريتريا وضعف مواردها الطبيعيَّة، مقارنة ببلادهم.

نتيجة لهذا التواتُر في الحرب، كان الصَّحفيون ينتظرون لبعض الوقت، وعندما يطول الانتظار، سُرعان ما كان يدُبَّ المَلل في نُفُوسِهم، فيبدأون بالرَّحيل، ثم يعودون مرَّة أخرى، هُم ذاتهم، أو آخرون غيرهُم من نفس مُؤسَّساتهم الإعلاميَّة، أو لا يعودون البتة!

كثيرٌ من هذه المُؤسَّسات تلهث وراء الخبر الطازج، دون أدنى اعتبار لظروفه الإنسانيَّة أو العاطفيَّة، ومن وراء هذا اللهث التمستُ أن كثيراً من الزُملاء يتمنون في قرارة أنفسهم ألاَّ يتوقف أزيز الرصاص، حتى لا يقعوا في دائرة الملل!! وذلك هو الوجه الآخر من المهنة؟!

عندما اشتعل محور "ظُرُونا" بعد "بادِمِّي" و"عَصَبْ"، كان ذلك يعني عملياً أن الحرب قد أصبحت على طول الحدود بين البلدين، التي يناهز طولها الألف كيلومتر.

في اليوم الثالث من بدء المعارك في محور "ظُرُونا"، استقلَّ عددٌ من المُراسلين الصحفيين نحو ثلاث سيارات، انطلقت بنا صباحاً من ساحة فندق

"أمباسيرا" في وسط العاصمة أسمرا، واتجهت جنوباً، وسلكنا ذات الطريق الذي سبق أن عبرناه إلى "بادِمِي" ولكنه يتشعَّب عند نقطةٍ ما إلى مفترقين.

كان الجو معتدلاً، يمكن أن يشطح خيالك معه وتتخيّل أي شيء - حتى لو كان قميئاً- إلاّ الحرب، إذ أنّ مجرَّد ذكرُها ثقيلٌ على الأذُن والقلب معاً، فما بالك إذا ما كانت بين خصمين ازدردا الأحلام - التي تُناقِضَ تلك السيرة الكريهة- مثلما يزدرد جائع فارق الطعام زمنا لقيمات يُقِمنَ صلبه.. وكانت السماء أيضاً صافية، لكن النفوس ليست كذلك، فقد سكنتها الكراهيّة والرغبة العطشى في الانتقام، والفُجُور في الخُصُومة..

على جانبي الطريق، كان كل شيءٍ يسير بنمطه المعهود في الريف الإريتري، ليس ثمَّة شيء غير عادي يسترعي الانتباه، غير أنني على يقين من أن كثيرين مِمَّن رأيناهم على جنبات الطَريق، لا سيّما الذين عاشوا تجربة الحرب الأولى، قد أضناهم السؤال الحائر: هل كُتِبَ علينا القتال من لمهد إلى اللحد؟!

من حين لآخر، أتجاذبُ أطراف الحديث مع زملائي الأجانب في السيَّارة التي تقلنا، وأقول بيني وبين نفسي: مِن المُؤكد أن كلاً منا يُمنِّي نفسه بصيدٍ ثمين يرضي وسيلته الإعلاميّة، وأقنع نفسي بأنني الأقدر بينهم لأنني أعرف ما يجهلون عن المنطقة وطبيعة الصراعات فيها.. كما أن اللغة تُؤهِّلني لأن أكون الأصدق في تجسيد ما نراه.. كانت تلك بعض الهواجس التي أحاول أن أغرق فيها قطعاً لدابر الوقت.

لم يكن الطريق إلى "ظُرُونا" بذات الوعورة التي واجهتنا في أماكن أخرى، لكنه كان متربا، ممَّا يضطر السيارة إلى التوقف كثيراً لانعدام الرُؤية جرّاء الغُبار الذي تثيره آليات ضخمة تسير مُقبلة من الناحية الأخرى، وهي تحمل أشياء كثيرة متعلقة بالجبهة.

يعتبر محور "ظُرُونا" هو الأقرب إلى العاصمة أسمرا، فطول الطريق لا يزيد عن ١٢٠ كيلومترا، ونظراً لانعدام التضاريس الجبليّة فيه، علاوة على قصره المذكور، فقد جرت روايات تؤكد أن القوّات الإثيوبيَّة بإشعالها المعارك في هذا المحور كانت تُمنّي نفسها بالوصول إلى العاصمة أسمرا، وتغيير نظام الحُكم فيها.

قبل الوصول إلى الجبهة، كنا قد توقفنا قليلاً في "ظُرُونا" المدينة، وهي تبعُد نحو ٥ كيلومترات تقريباً منها. والمدينة التي أصبحت مهجورة تماماً بعد ترحيلُ سُكّانها لقُربِهم من مدى القصف المدفعي، كانت مبانيها جميلة نسبياً، ولم نجد فيها مواطناً واحداً، وذُكِرَ أن تعدادهم كان يبلغ نحو خمسة الاف مواطن.

غادرنا المدينة، وبعد دقائق قليلة وصلنا إلى المواقع الدفاعيّة. تركنا سياراتنا جانباً وطلب منا في البداية أن نصعد جبلاً، وبالطبع فإن عمليّة الصعود لمن لم

يألفها صعبة بعض الشيء، ولهذا كان وجود الزميلات ورُؤية المقاتلات حافزاً لتحمُّل تلك الصعاب، فالمسألة لا تخلو من تحدٍ باطني، وذلك من شيمة البشر.

عند وصولنا القمَّة، كانت هناك مواقع محصَّنة تماماً، من شكلها ظننتُ أنها مركز القيادة، فهذه المواقع التي في القمَّة تجعلك تنظر لساحة المعركة من عَلٍ، وبالتالي تسهُل إدارتها نظراً للطبيعة المنبسطة للمحور - والتي ورد ذكرها- وعند الاستعانة بالنظارات الميدانيَّة، ظهر كل شيء كأنما هو في متناول اليد. لهذا، وقبل أن نخفي أجسامنا بكاملها خلف الصخور، اختلسنا النظر بتلك النظارات الواحد تلو الآخر.

كان قد تزامن مع وصولنا لذلك الموقع هروب ثلاثة من الجنود الإثيوبيين، وسلموا أنفسهم للقوَّات الإريتريَّة، اقتربنا منهم، وكانوا يتصبَّبون عرقاً، وبدوا في حالة إعياء شديد.. نظراتهم حيرى لا تستقر على شيء، وعندما سألناهم، قالوا إنهم هربوا لانهم لا يرغبون في مواصلة حربٍ ليسوا على اقتناع بها. كما التقينا في ذات الوقت طاقم دبَّابة مُكوَّنا من ثلاثة جنود، سلموا أنفسهم في اليوم الذي سبق وصولنا بدبّاباتهم، وقالوا إنهم خاطروا بذلك لأن أفراد قوَّاتهم أطلقوا عليهم النار من الخلف بعد هروبهم، ولكنهم نجوا من الإصابة.

بعد فترة من الوقت - يبدو أن ترتيباتٍ ما قد جَرَت خلالها- قِيلَ لنا أننا سنهبط من قمَّة ذلك الجبل سيراً على الأقدام لنتَّجه إلى المواقع الأماميَّة التي جرت فيها المعارك.

سِرنا في خطٍ طولي مستقيم ومتباعدين عن بعضنا البعض.. المسافة تناهز الكيلومتر تقريبا، وعند وصولنا لخط الدفاع الأخير، كان عبارة عن تلٍ رملي بارتفاع ثلاثة أمتار، ويمتد مستقيماً لمسافة حوالي ٤- ٥ كيلومترات.. استقبلنا الجنود المرابطون هناك - على غير العادة- بصيحاتٍ من الفرح الهستيري، وبعضُهُم انفعل وأطلق عدَّة طلقاتٍ من بندقيَّته في الهواء، ولكن هنالك من زَجَرَهُم عندما دبّ الهلع في وجوه بعض الزميلات.

كانت الروح التي قابلنا بها المُقاتلون تدُلُّ على أنهم حققوا نصرا موزراً، وبعضُهُم تبارى في إظهار مشاعره تلك بشتى الطرق.

لم نكن نظن أن أمام السد التُرابي الذي وقفنا بقُربه يكمُن السر، وعندما عبرناه كان ما رأيناه شيئاً مفزعاً.. عدداً لا يُحصى من جُثث الجنود الإثيوبيين وقد تناثرت في كل أرجاء المكان، بعضها تراكم فوق بعض.. مددتُ النظر يميناً ويساراً على مدي رُؤيتي، وأمامي على بعد ٣٠٠ متر، والمنظر ذاته يتكرَّر.. لم أرَ في حياتي مثله، ولا حتى في أجهزة الإعلام المرئيَّة.. كان شيئاً فظيعاً.. بعض الجثث تقطعت أشلاء.. وعلى بعد خمسة أمتار من السدِّ الترابي، حُفِرَ خندقٌ مُوازٍ على طول السد بعُمق متر واحد.. امتلأ ذلك الخندق بالجثث أيضاً.. زميلة لنا كانت

قد قَدِمَت من إحدى الدول الأوروبيَّة، رأيتُها تنهار وتُحهش ببكاءٍ أقرب إلى العويل، ودخلت في إغماءة لبضع دقائق، فتجمَّعنا حولها، ورشَّ أحدنا ماء على وجهها فاستيقظت مذعورة، والبعض يحاول طمأنتها بشتى اللغات، فطلبت أن تعود فوراً.. ليس إلى الخلف، ولكن إلى أسمرا مباشرةً.. فلم يجد المُرافق الذي كان معنا وهو من وزارة الخارجيَّة (''عبدالله محمد آدم'') بُداً من أن يستجيب لرغبتها.

كانت هنالك أشجارٌ متفرِّقة تُغطي المساحة التي تفصل بين الدفاعات الإريتريَّة والإثيوبيَّة.. بين هذه الأشجار، هناك عشرات الدبَّابات المُحترقة.. بعضُها ما يزال ينبعث منها دخان متقطع، وفي مساحة لا تزيد على مساحة ميدان كرة القدم أحصينا نحو ٢٩ دبابة، ولفَتَ انتباهي أن بينهم شاحنة أشبه بالجرَّار، وعند سؤال القائد الميداني، قال لنا: «**إن الإثيوبيين أحضروا هذه الشاحنة لتسوية السد التُرابي الذي أمامكم، ظناً منهم أن الأمر سيكون نُزهة لن يتوقفوا معها إلاّ عند أبواب أسمرا**»..

شرح لنا هذا القائد طبيعة المعركة، وقال: «**كنا نتمترس في داخل هذا الخندق، وفي الساعة الثامنة من صباح يوم الأحد ١٤ مارس (آذار) رأيناهم بالعين المُجرَّدة يتجهون نحونا، وكان عددهم كبيراً، جاءوا في شكل موجاتٍ بشريَّة مسنودة بالدبَّابات، ولما كان عددنا قليلاً مقارنة بهم، صَدَرَت الأوامر بالخروج من الخندق والاختباء خلف السد التُرابي، وكان ذلك أمراً مكشوفاً، ولرُبَّما ظنوا أننا هربنا منهم، فواصلوا تقدُّمهم إلى أن وصلت مقدِّمتهم إلى الخندق، وهنا صدرت الأوامر بالاشتباك، وبدا كأن الأمر مفاجئاً لهُم، بمعنى أن المعركة دارت في فاصل عدة أمتار**»..

قال لنا أيضاً، أن كثير من الذين تحدَّثنا إليهم، إنهم عند لحظة الاشتباك استغنوا عن بنادقهم واستعاضوا عنها بالقنابل اليدويَّة (الجرانيت)، لحصد أكبر عدد من الجنود الإثيوبيين، وأيضاً لأن خزانة البنادق ''الكلاشنكوف'' التي تحوي الرصاص محدودة العدد، كما أنها تتطلب الضغط المُستمر على الزناد، وذلك أمر يصيب إصبع الإبهام بالجروح والتورُّم.

كنتُ قد وجدتُ أحد الزملاء الإريتريين، وهو إعلاميٌ يقضي فترة الخدمة الوطنيَّة في الميدان، قال لي: «**باختصار، إن النيران قد غطت كل شيء، وصار لون الأرض والسماء والفضاء كله أحمر، انحسر كل شيء سوى شهوة القتل والموت. وظلت المعركة مستمرَّة بتلك الصورة الخرافيَّة منذ الصباح وحتى قرب مغيب الشمس**».

سطع في مُخيِّلتي فجأة ونحن في خِضَمِ هذه الأجواء بطلُ رواية الكاتب الروسي الشهير ديستوفيسكي ''المغامر''، ورأيتُ أنها تجسيدٌ لواقع الحال الذي رأيناه أمامنا.

قال لنا القائد الميداني: «**إن الأسلوب القتالي للجنود الإثيوبيين، هو الذي ألحق بهم هذه الهزيمة النكراء، وكان الموت نصيب كل من اقترب، حيث أنه لم ينجُ أحد قط**».

لكن أحد الجنود أسرَّ إليَّ بشيء، إذ قال لي: «**رأيتُ جريحين إثيوبيين، فاقتربتُ منهُما وحاولتُ مساعدتهما، فرفضا بشدَّة، وأردتُ أن أحملهما إلى الخلف لمداواتهما فرفضا أيضاً، وحاولتُ ذلك مراراً وتكراراً، وعندما عيل صبري أفرغتُ فيهما بندقيتي**». كان يتحدث بعفويَّة وتلقائيَّة، وبهدوءٍ تام، وعند ما قلتُ له: «**ولكن لماذا؟!**».. قال لي بذات الهدوء، وكأنما قرأ الاستغراب في وجهي: «**يا أخي، أنت لا تعلم ظروفنا في تلك اللحظة، فقد فعلتُ ما رأيته صحيحاً في البداية، ولكن عندما تمرَّدا عليَّ استعجبتُ لإنسانٍ تودَّ مساعدته ويمتنع، فقلتُ في نفسي: طالما الأمر كذلك، فهُما يستحقان رصاصة الرحمة، ولرُبَّما هذا ما يريدانه.. عموماً أنا أيضاً لم يكن لديَّ وقت، فقد كانت هناك مهام أخرى في انتظاري**».. وأردف قائلاً: «**على كلٍ، لم أقل هذا الأمر إلاّ لك أنت**»!

وقفتُ برهة شرد فيها ذهني متأمِّلاً هذه الوقائع، إلى أن تردَّد صدى عباراته في أذني، وطرقها بعُنفٍ وهو يقول: «**إن للميدان ظروفه**».. وأدركتُ أن كلماته يمكن أن تقطع قول كُلِّ خطيبٍ يريد أن يشطح في فتواه.

حُذِّرنا من الاقتراب من الدبَّابات المُحترقة لأن بداخلها ذخائر يمكن أن تنفجر في أي لحظة.. أحضر لنا المقاتلون شاباً بدا أنه في العقد الثاني من عمره، وكانوا يداعبونه ويربتون على كتفه، قالوا لنا إنه وحده دمَّر أربع دبَّابات، لذا أطلقوا عليه "صائد الدبَّابات".. سألناه عن أسمه، فقال: «**محاري**».. تحدَّث إلينا بكثير من الفخر والاعتزاز، ربَّما لإحساسه بأنه قام بعملٍ بطولي، وأصبح متميِّزاً عن أقرانه، رغم أنها المرَّة الأولى التي يخوض فيها حرباً، فقد نال تدريبه العسكري ضمن دفاعات الخدمة الوطنيَّة الإلزاميَّة بمعسكر "ساوا".

سألنا القائد الميداني عن الطائرة "الميج-٢٣" التي قيل إنهم أسقطوها، ووَرَدَ ذكرها في البيان الرسمي، فقال إنها تهاوت محترقة إلى أن وقعت على الجانب الآخر، وأشار بيده إلى مجموعة من الأشجار الكثيفة على بُعد عدة كيلومترات، وقال: «**إنها هناك، لكن الوصول إليها فيه بعض المُخاطرة، لأن المنطقة قد تكون مزروعة بالألغام**».. وبهذا الشرط القاسي، لن يجرؤ أي أحد على تكذيب الرواية، حتى ولو كانت من صنع الخيال.

كانت الجثث قد بدأت في التحلل، فعَبَقَ المكان برائحة نتنة وكريهة، فأعطانا المُقاتلون محارم ورقيَّة لنضعها على أنوفنا، مثلما فعلوا هُم.

هناك شيئان كانا يثيران اهتمام زملائي الأجانب.. أولهُما، وجود المُقاتلات الإريتريات جنباً إلى جنبٍ مع المُقاتلين، علاوة على أن القائد الميداني الذي يتحدَّث

إلينا لا تستطيع أن تميّزه عن باقي المُقاتلين، فهو يرتدي ذات ثيابهم العسكريَّة ولا يضع على كتفيه أي علامات أو نياشين توضح بأنه القائد. وطبقاً لذلك، لا تستطيع أن تعرف على وجه التحديد ما إذا كان قائداً أوّل، أم ثانياً، أم ثالثاً. وعندما قرّرنا العودة، قال لنا إنه عملياً يعتقد أن الحرب في هذا المحور قد انتهت، لأن الخسائر التي مُنيَ بها الإثيوبيون تجعلهم لا يُفكرون في إعادة الكرّة مرّة أخرى.

كنتُ قد التقيتُ أحد الزُملاء الصَّحفيين بعد معارك "ظُرُونا" بعدة شهور، وهو لصيقُ الصلة بصُنّاع القرار في أديس أبابا، فقال مؤكد: «**إن القيادة الإثيوبيّة في تقييمها لمعارك "ظُرُونا"، استنتجت أنها خطأ عسكري واستراتيجي**». وقد فسّر لي ذلك الإنكار المُستمر للمتحدّثة الرسميّة الإثيوبية "سالومي تاديسّي" لهذه المعارك والخسائر التي حدثت فيها - رغم مشاهدات الصَّحفيين والمُراسلين ونقلهم لذلك الحدث- حيث ظلت السيّدة "تاديسّي" متمادية في نفيها وإنكارها، لدرجة أن أحد الزُملاء الأجانب استشاط غضباً أثناء بث نشرة إخباريَّة في قناة الـ CNN في بهو فندق "صن شاين"، وكان رتلٌ من الصحفيين يشاهدها، نفت فيها المعارك التي حدثت، وكان ذلك بعد عودتنا مباشرة، فقام ذلك الزميل وتحدّث بصوتٍ عالٍ دون أدنى اعتبار لأي شيء، وقال: «**وددتُ لو أرى هذه السيّدة لأتبوّل على فمها**».

كُنا قد سألنا القائد الميداني عن خسائرهم - أي الجانب الإريتري- فأجاب بثقة: «**إنها لا تذكر**».. وأردف قائلاً: «**القليل فقط من الجرحى، لأننا كنا في موقف المدافع ونحمي أنفسنا بالسدّ الترابي**». وتجوّلتُ ببصري في كل أنحاء الموقع للتحقق من إجابته، فلم أجد أثراً لمقبرة على سبيل المثال، أو حتى آليّاتٍ محترقة، وقلتُ لنفسي: «**إن الأولى يمكن إخفاؤها، وإن حدث ذلك فهي تكريمٌ للموتى، لكن الثانية لا جدوى من إخفائها**»..

هذان التفسيران جريا مجرى إجابة القائد الميداني التي كانت دبلوماسيّة، لكن الواقع، ان هناك خسائر بشريّة، إلاّ أن التقليد الإريتري الصارم يجعل منها أمراً يستحيل معرفته، إلاّ عندما تتوقف الحرب نهائياً مثلما كانت الحرب أثناء التحرير.

أثناء عودتنا سيراً على الأقدام للمواقع الخلفيّة، فجأة بدأ القصف من الجانب الآخر والقصف المُضاد من الجانب الإريتري، تتخلله زخّاتٍ من الرصاص المُتواصل، فطلب منا أن نُسرعَ الخُطى ركضاً، فوصلنا الموقع لاهثين، وفسّر الأمر بأن حركتنا في المواقع الأماميّة هي التي دفعت الإثيوبيين لذلك الفعل.

قرّرنا العودة إلى العاصمة قبل أن تغرُب الشمس، فأسرعنا إلى السيّارات التي تقلنا، واتجهنا صوب أسمرا، وهاجس خفي يقول: ربّما لحقت بسيارتك تلك قذيفة طائشة تكون بعدها قد ذهبت في طريق الرحلة الأبديّة، وليس العودة إلى العاصمة! وازداد هذا الهاجس عندما توقفت السيّارات الثلاث في موقع لا يبعُد كثيراً من نقطة انطلاقنا، وطلب منا الاختباء قليلاً، وفجأة سمعنا صوت انفجار

ضخم، وبعد أن هدأ، قيلَ لنا إن هناك طائرتي ميج تحومان في المنطقة وألقتا بحمولتيهما في مكان ما.. علمنا بعدئذٍ من موقع آخر توقفنا فيه لعدة دقائق، أن القذائف سقطت على قرية تُسمَّى "يقنقنا" وجرحت بعض المواطنين. كان تعليق الجنود الموجودين في الموقع أن ذلك فعلٌ يائس، جاء كردّ فعلٍ للهزائم التي حدثت في محور "ظُرُونا".

في رحلة العودة، وعلى مدى الطريق الذي قطعناه من قبل صوب أسمرا، كنتُ قد تأكدتُ في قرارة نفسي - بعد أن اشتعلت المعارك في عَصَبْ، ومِن ثَمَّ ظُرُونا- بأن الحرب التي بدأت كمشكلة حدوديَّة في منطقة "بادمّي" قد تحوّلت إلى حربٍ أخرى ذات أجندة خفيَّة، وقد طرأت عليَّ هذه الهواجس سلفا قبل عام، وتحديدا بعد أيامٍ قلائل من بدء الحرب الحدوديَّة، حينما قصفت إثيوبيا مطار أسمرا، وقامت إريتريا بقصف مطار ميكلي، إلاَّ أن تلك الهواجس آنذاك كانت لها مبرّراتٍ أخرى لم ترْقَ إلى درجة اليقين في تحوُّل أجندة الحرب.

في الطريق إلى أسمرا - بعد أن بدأت الشمس في المغيب- استهلكتُ الوقت في الحديث إلى الزميل المخضرم "فولكارد ويندفير"، وهو ألماني الجنسيَّة ويُراسل مجلة "دير شبيجل" من القاهرة لأكثر من رُبع قرنٍ من الزمان، ويرأس في ذات الوقت جمعيَّة المُراسلين الأجانب في مصر، ويتحدَّث اللغة العربيَّة بطلاقة، تشوبها أحيانا اللهجة العاميَّة المصريَّة، وكان يحكي لي عن تجاربه في هذا الحقل في كثير من البلدان التي زارها، وكان بعضها مثيراً يشد أعصاب مستمعه، وبعضها مُمتعاً وفكها، وقد أضفت عليه مهنة الصحافة التي امتهنها قرابة نصف القرن شيئاً من الخبرة المُحصّنة التي تجعل من يمتلكها يرى الأمور بنظرة أكثر واقعيَّة وأعمق حسا، وقد توطدت العلاقة بيننا، خاصَّة أن زياراته لإريتريا قد تكرّرت.

كان "فولكارد" في حديثه يحاول دائماً البحث عن الأصابع الأجنبيَّة في المشكلة، ويقول لي: «**إن تجاربي في العالم الثالث علمتني ذلك**»، وكنتُ أوافقه فيما ذَهبَ إليه، لكني قلتُ له ذات مرَّة: «**إن البحث عن هذا الإصبع في هذه المشكلة بالذات، هو أشبه بالبحث عن الإبرة الضائعة في كوم من القش**». وكان دائما ما يختتم حديثه في موضوع ما بحكاية موقف طريف، فهُو يتمتع بروحٍ مرحة.

عندما اقتربنا من أسمرا بعد نحو ساعتين من المسير، كان الليل قد غطى المدينة، فبدت أنوارها تتلألأ، وتبدو من بعيد كمدينة بسيطة تعيش الحياة بشيءٍ من الوجع الإنساني، وعندما وصلنا الموقع الذي انطلقنا منه، كان عقلي يحاول المواءمة بين نقيضين: مناظر الموت المجَّاني التي رأيناها في محور "ظُرونا"، ووداعة هذه المدينة التي تتشبّث بالحياة!

مارس (آذار) ١٩٩٩

"زَالَ امبسَّا".. الجبهة الصامتة

"إنَّ أعظَمَ دَرَجَات المَهَارَة العَسْكَرِيَّة هِيَ تَحطيمُ مُقَاوَمَة العُدُوّ بدون قِتَال"

المفكر الإستراتيجي الصيني "صن تزو"

لم تستعر المعارك في "زَالَ امبسَّا" إلاَّ في الأيام الأولى للحرب في عام ١٩٩٨، وظلت بعدئذٍ هادئة، ولم تشهد قتالاً حتى نهاية الجولة الثانية، رغم أنها الجبهة الأكثر تردُّداً في وسائل الإعلام في تلك البدايات.

عندما قرَّرنا زيارتها جاء التوقيت في خِضَمِّ أنباء عن حشود إثيوبيَّة تنبئ بحُدُوث معركة فاصلة.. و"زَالَ أمبسَّا" تُعتبر المِحوَر الثاني الأقرب إلى العاصمة أسمرا بعد "ظُرُونا"، فالمسافة لا تتعدَّى ١٦٠ كيلومتراً، مع فارق أن الطريق كله مُسفلت، قطعناه في ساعتين تقريباً لأنه كثير الالتواء، وطلت السيَّارتان اللتان تحملان عدداً قليلاً من الصحفيين - مقارنة بالذين رافقونا إلى الجَبَهَات الأخرى- تشق الطريق وسط جبال شاهقة صعوداً وهبوطاً ودوراناً، بصورةٍ تبدو وكأنما المرء يمارس لعبة صعبة من ألعاب السيرك.

توقفنا قليلاً في مدينة "عدي قيح"، وهي تتوسَّط المسافة تقريباً بين العاصمة و"زَالَ امبسَّا"، تناولنا بعض المرطبات في مقهى على الطريق، وكان برفقتنا السيد "حقوس وُلدو" من وزارة الخارجيَّة، الذي يتمتع بسعة صدرٍ مطلوبة في مثل هذه المُهمَّات، وهو الذي رافقنا في عَصَبْ أيضاً، ومعنا البروفيسور "روي باتمان"، الذي ظلَّ يحكي لنا عن ذكرياته في هذه المناطق، و لتي كان موجوداً فيها أوائل الثمانينات، إبان حرب التحرير الإريتريَّة الأولى، وكان مهتماً بذلك الصِّراع، وكتب فيه كثيراً.. أراني خاتماً فضياً في يده، وقال لي بشيءٍ من الفرح الطفولي، إنه اشتراه من صائغ ما في هذه المدينة، فأصبح يمثل له ذكرى عزيزة، وتساءل قبل أن ينتظر الإجابة، ما إذا كان هذا الصائغ حياً أم ميِّتاً؟! وقال لي: **«هذه المدينة تغيَّرت كثيراً، لا أستطيع تبيُّن المكان الذي اشتريته منه».**

بدا لي أن البروفيسور "باتمان" في العقد السادس أو يزيد قليلاً من عمره، لكنه ما يزال نشطاً، وقد لاحظتُ أنه يحمل آلة صغيرة في يده يفتحها من حين لآخر وينزوي جانباً ويتحدَّث فيها، وعندما سألته من باب حُبِّ الاستطلاع، قال لي إنه تعوَّد على طريقة التسجيل منذ زمنٍ طويل، ولا يستعمل القلم في نقل وقائع ما

يراه، لكنه يعود ليُفرّغ أشرطة التسجيل لاحقاً، ونَصحَني بأن أتبع هذه الطريقة، فقلتُ له بما معناهُ في سلوكنا التقليدي: «**كل شيخ وله طريقته**»!

أتخيَّلُ "باتمان" عندما كان يُحدِّق في الأشياء والأمكنة على جانبي الطريق، فهُو يقارن بين صورتين: إحداهما مضى عليها عقدان من الزمن تقريباً، وتقبع في ذاكرته، والأخرى، ماثلة أمام عينيه. وكلاهما تصطرعان وتخلقان له مناخاً خاصاً يمور في دواخله. ذلك جعلني أتساءلُ بيني وبين نفسي - متشائماً ومتفائلاً- إن كنتُ سأعود يوماً بعد سنين عدَّة لتجري ذات المقارنات في ذهني.

كُنا قد وصلنا موقعاً بعد أن فارقت السيَّارة الطريق المُسفلت لمسافة تبعُد نحو بضعة كيلومترات تقريباً، حيث رافقنا أحد المسئولين، وعُدنا مجدَّداً للطريق المُسفلت إلى أن وصلنا مدينة "زَالَ امبسًا"، وشأنها شأن أي مدينة أصبحت تقع تحت دائرة الخطر، فقد قامت السُلطات الإريتريَّة بتهجير سُكَّانها إلى أماكن أكثر أمناً، ولذلك وجدناها خالية، بعضها تهدم بفعل القصف المدفعي الذي وقع العام الماضي، وكان عدد سُكَّانها يزيد على العشرة آلاف مواطن. بعد أن سِرنا مسافة قليلة، انحرفت السيارة نحو الشمال، وقال لنا مرافقنا: «**الآن نتجه نحو الجبهة**».. أما الطريق المُسفلت الذي فارقناه، فهو يستمر كذلك إلى أن يصل مدينة "عدي جرات" الإثيوبيَّة، حيث تبعُد من النقطة الحدوديَّة نحو ٣٠ كيلومتراً فقط.

بالطبع، كان هذا الطريق هو الشريان الذي يربط إقليم التيغراي بجنوب إريتريا، ولهذا كان سالكاً فيما مَضَى بالمواطنين والشاحنات التجاريَّة التي تحمل السلع المُتبادلة، ولكنه منذ أن اندلعت الأزمة ظلَّ غير مطروق، إلاَ من بعض المرَّات حينما تطأه أقدام أرتالٍ من الإريتريين المُبعدين، الذين يعبرونه سيراً على الأقدام، أو الإثيوبيين الذين يعودون إلى بلادهم طوعاً، بعد أن تعسَّر بهم الحال المعيشي وأورثتهم الحياة ضنكاً..

كلما رأينا شيئاً مدمِّراً قال لنا مرافقنا، إن ذلك من آثار حرب العام الماضي، وأكَّد أن هذه الجبهة تعتبر الأكثر هدوءً منذ تجدُّد المعارك، ولم يحدُث فيها أي شيء، سوى قصف متقطع من حين لآخر، وقد اعتادوا عليه.

وصلنا إلى موقع تركنا فيه السيَّارتين، والغريب أنه لم يتم هذه المرَّة إخفاء معالمها، مثلما حدث في الجبهات الأخرى، ذلك انعكس علينا اطمئناناً. وبدأنا السير على الأقدام، وما أن تحرَّكنا لمسافة مائة متر، حتى بدأ القصف الإثيوبي على الموقع بمدافع الـ"مورتر"، فأشار علينا مرافقنا باللجوء إلى موقع دفاعي قريب، دخلناه مذعورين، وبعد فترة قليلة شَرَعنا في اختلاس النظر عبر كوَّاتٍ صغيرة، أحسبُها خُصِّصت لتهوية الخندق الدفاعي، فكانت القذائف ترتطم بالصخور المتمدِّدة فتُحدث دوياً هائلاً، بعضها يسقط في بطن الوادي المنبسط، الذي تحيط به الجبال من ثلاث مواقع، وتثير غباراً كثيفاً، وكان ذلك كله لا يبعُد من المكان الذي التجأنا إليه أكثر من ٣٠٠ متر.

على مدى الساعة التي استمرَّ فيها القصف، كان الهلع بائناً على كل الوجوه، عدا المُقاتلين الذين ظلوا يُهدِّئون من روعنا، ويقولون إن ذلك أمرٌ ألفوه بصورة دائمة، ولكنه غير مُجدٍ.

بعد أن هدأ القصف، طُلِبَ مِنَّا التحرُّك فرَادى، وبسرعة، وظهورنا محنيَّة إلى الأرض، كمن يبحث الواحد منا عن شيءٍ ضائع، فسَرَرْنا على عدَّة نقاط دفاعيَّة مُبعثرة على سفح الجبل، ومتخذة شكل الصُخور نفسها، ولهذا لا نتبيَّنها إلاَّ عندما نحاذيها ونسمع همهمة الجنود المقاتلين تنبعث من داخلها.

بعد حوالي كيلومتر واحد تقريباً، وصلنا إلى خط الدفاع الأمامي، وهناك أدركنا لماذا بدأ القصف الإثيوبي ساعة وصولنا. ذلك لأن الدفاعات الإثيوبية توجد على سفح جبل آخر أكثر علوا من الجبل الذي توجد فيه الدفاعات الإريتريَّة، ولذلك يسهل رصد أي حركة تحدُث في هذا الجانب، وخاصَّة بطن الوادي، حيث أن الداخل إلى عُمق الجبهة لابُدَّ وأن يمُرَّ بمُقدِّمَتِه.

كم كان الأمر مثيرا في خط الدفاع الأوَّل، عندما رأيت المسافة بين الدفاعين الإثيوبي والإريتري، في بعض المواضع بين الجبلين، لا تزيد عن مائتي متر، والمسافة التي تفصل بين الطرفين ليست كلها في خطٍ مستقيم، فالدفاع الإريتري مبنيٌ في شكل سُور أيضا، مثل ذلك الذي رأيناه في عَصبْ، وهو يلتف تحت الجُزء الأسفل من الجبل، وفي بعض المواقع تتراوح المسافة الفاصلة بين الطرفين من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ متر، وهناك أشجار طويلة وحشائش كثيفة شديدة الخُضرة تغطي المساحة الفاصلة، وقيل لنا انها مليئة بالألغام، وهذا ربَما فسَّر عدم تقدُّم أي طرفٍ نحو الاخر. وكانت هناك بعض الحيوانات الأليفة هائمة في تلك المساحات الخضراء، وأثناء وجودنا سمعنا صوت انفجار ثلاثة ألغام على التوالي، كانت تلك الحيوانات قد وطأتها.

وقفنا على آثار المعارك الماضية، كانت بعض المُنشآت قد تحوَّلت إلى أطلال، حيث توجد في القمَّة كنيسة دَمَرَ القصف الإثيوبي اجزاء منها، ومن أعلى أيضا نظرنا إلى قرية تسمى "لغات"، وقد اتخذت وضعا وسطياً بين الدفاعات في أسفل الوادي، وبدت من بعيد مُدمَّرة تماماً، وهي لن تكون إلاَّ كذلك، لانها تقع في مرمى نيران الطرفين.. ظللنا فترة من الزمن في تلك المواقع الأماميَّة، وكان الجميع مندهشين لهذه الجبهة التي يكاد الطرفان أن يكونا فيها متلاصقين تماماً.

عند الهبوط من القمَّة، كان علينا التوقف في أكثر من موقع دفاعي، وذلك لإصرار المُقاتلين على ضيافتنا بقهوة تُعَدُّ وفقاً للطقوس الإريتريَّة، وهذه الطريقة تأخذ وقتا طويلاً.. كان المقاتلون خلالها يسألون الزُملاء عن انطباعاتهم بما تسنَّى لهم من لغة إنجليزيَّة بسيطة، ثم يتبادلون الأنس فيما بينهم باللغة التيغرينيَة.

في ذلك الموقع، كان الجميع مشدودين لمقاتلٍ يسرد قصّة طويلة، وكان ينفعل أحياناً في السَّرد، ويأتي بحركات من يديه وعينيه وفمه، فكان ذلك مثار اهتمامنا، رغم الجهل باللغة، فسألتُ مرافقنا عمّا يحكي، فقال: «**إن هذا "الحكواتي" قد قدِمَ من جبهة أخرى كانت قد شهدت معارك ضارية، وهو يحكي عن مواقف حدثت أثناء وجوده هناك، فالقيادة العسكرية الإريتريّة تقوم من فترة إلى أخرى بتحويل جنودها المُقاتلين من موقع إلى آخر لاعتباراتٍ ميدانيَّة درجوا عليها في الماضي**».

كان هناك تآلف بين المُقاتلين أحال أجواء الحرب الكريهة في الجبهة إلى شيء آخر، تلمس فيه كأنما الجميع يُمارسون عملاً طبيعياً، رغم أن حالة اللاحرب واللاسلم - ولو إلى حين- كما هو الحال في هذه الجبهة، يمكن أن يصيب الإنسان بالكآبة والملل والضجر. ولهذا تبقى تجربة حرب التحرير بالنسبة للإريتريين زاداً اغترفوا منه الكثير من العِبَر العسكريَّة والسيكولوجيَّة والتعبويَّة.

كانت الشمس قد بدأت تميل نحو الغروب، فأشاعت منظراً ساحراً على الموقع كله، وقال لي أحد الزملاء، الذي افتتن بالمنظر: «**لولا الحرب، لكان هذا المكان موقعاً سياحياً جذاباً**». وقلتُ له: «**لولا الحرب، أشك في أنك يمكن أن تأتي إلى هذا المكان**»!

عندما يمضي الإنسان بعض الوقت مع المقاتلين في الجبهات، يشعر أنه نفسيا انخرط في ذلك الواقع، وأصبح جزءً منه، ولذلك عندما قرَّرنا العودة، كانت بنا رغبة للبقاء لفترة أطول، فربّما يتيح ذلك معرفة كثير من دقائق الأمور، وبالقدر نفسه تكون الزيارة الخاطفة أشبه بنزهة ترفيهيَّة، تثير المواجع أكثر مما تطفئ أوار الرغبة الجامحة في الإحاطة بكل شيء، حتى ولو صَغُرَ شأنه.

غادرنا الموقع وكأنما الغبار الكثيف الذي نتج عن حركة السيارة قد أسدل الستار على مسرحيَّة دراماتيكيَّة، تساوت فيها مشاعر الضحك والبكاء، لحربٍ تقول كل القرائن إنها: «**حربٌ عبثيَّة بسيناريو واحد، اسمه "الانتقام"**»!

في رحلة العودة، ليس من شيءٍ يُثير الفضول، وتكون الأسئلة اليتيمة هي ذات الأسئلة، والانطباعات المضطربة هي ذات الانطباعات، والمشاعر المجروحة هي ذات المشاعر، لذلك شعرتُ بأن الحديث أصبح باهتاً مع الزملاء.. لا لون له ولا طعم ولا رائحة، فانزويتُ في المقعد الخلفي للسيارة، وآثرتُ الصَّمت، إلى أن لاحت لنا على البُعد أضواء العاصمة أسمرا.. هذه المدينة التي ينتابني إحساسٌ عميق كلما قدِمنا إليها من الجبهات، وهو: الرغبة في تقيؤ شيء كريه، اسمه الحرب!!

أبريل (نيسان) ١٩٩٩

الجَبهَة الدائريَّة "الجُهَنميَّة"

"...كَلِمَتي التي تَخرُجِ مِنْ فَمِي لا تَرجعِ إليَّ فَارِغَةً..."

النبيُّ أشعياء (عليه السلام) - العهدُ القديم ٥٥:١١

كانت المُعايشة الميدانيّة لهذه الحرب مُنذُ اندلاعها في جبهات مُتنازع عليها بين البلدين، قطعناها جواً وبراً، ووقفنا على أحداثها من الزاوية العسكريّة والإنسانيّة معاً، وقدّمنا وصفاً للمواقع من الناحية الجُغرافيّة، في محاولةٍ لأن نضع القارئ في المناخ نفسه، وكان الظن أن الحرب - وهي سجالٌ بين الطرفين- ستنحصر وقائعها في ذلك النطاق، ولكن حين اندلاع الجولة الثالثة، بدأت الأحداث والأجندة تتغيّر بصورة مُذهِلة يصعُب مُجاراتها، ففي الحدّ الأدنى وجدنا أنفسنا نزورُ جبهاتٍ غير مُتنازع عليها، ذلك لأنها ببساطة تقع داخل العُمق الإريتري، ولا أدري إن كان وصف "جبهة" يُجسّد تلك الحالة أم لا.

كنا نزحفُ نحو جبهات القتال على الحدود، فإذا بالجبهات تزحف نحونا، بعد أن شقت القوات الإثيوبيّة طريقها في الأراضي الإريتريّة، وتحوّل النزاع إلى غزوٍ!

عندما قامت القوات الإثيوبية بالتوغُّل، واحتلت مناطق ومُدُن وبلدات إريتريَة، أصابت الدهشة والذُهول المُواطنين في الداخل، وقابلها صمتٌ مُريب في الخارج، وبالمعنى المادي الملموس، لم يكن ما أقدَمت عليه استباحة لأرض، وإنما استدعاء لماضٍ مليء بالآلام والاحزان والمحن، فكان التشريد والنُزوح ورحلات اللجوء مُجدَداً، وكان القتل والترويع لمواطنين أبرياء، وكان الدمار للمنشآت العامّة والممتلكات.. مشاهد مأساويّة فطرت قلب كل من تابعها على الأجهزة المرئيّة، ناهيك عن مُعايشتها على أرض الواقع.

أشهدُ على المستوى الشخصي، أن أكثر المشاهد قسوةً وإيلاماً في نفسي، هي تلك التي يتعرّض لها المواطنون الأبرياء، ذلك ربّما لأنني عايشتُ سيناريو مماثلاً في زمانٍ مضى، وكان إبان الغزو العراقي لدولة الكويت، التي كنتُ أعملُ وأعيش فيها آمناً، حتى وجدتُ نفسي أنزحُ عنها ذات يوم في رحلة قسريّة مع عائلتي الصغيرة، وفي ظروفٍ قاسية، زادها معاناة لمسافة امتدَت لألفي كيلومتر بالطريق البرّي حتى مدينة العقبة الأردنيَّة، حيث يوجد معسكر إيواء خُصّص للنازحين الذين شرّدهم الغزو، ولهذا فإن ما حدث بالوقائع التي شهدتُها جعلَ أيضاً

oberkanoi.com

ماضياً اندثر يستيقظ في ذاكرتي، وحرّضني على التأمُّل في مصير جُمُوع المُواطنين الأبرياء كلما مثلوا أمام عيني، وأخلُصُ إلى أنَّ وراء كل واحدٍ منهم قصّة، وذلك ما يضاعف من وقع المأساة بحق.

على مدى شهرٍ كامل ظلّ رتلٌ من الصحفيين - وأنا بينهم- يجوب الجبهات المختلفة على طول الحدود وداخل الأراضي الإريتريَّة، وقد لاحظتُ أن عددهم هذه المرّة ازداد أكثر ممّا كان الأمر عليه في الجولات السابقة، كما أنه تنوَّعت جنسيّاتهم، حتى تحسب أنهم جاءوا من بقاع الأرض جميعها، وللمُفارقة، فالحروب أيضاً تُغري البعض بركوب الصّعاب لرُؤية ما تفرزه من مآس، وذلك أمرٌ بالطبع يفتح شهية أي وسيلة إعلاميّة.

تكرّرت الزيارات للمواقع، مُثنى وثلاث ورُباع، وفقا لطبيعة المعارك التي لم تهدأ لحظة، حتى نالَ التعب والإرهاق من الذين يُمسِكون بالأقلام ويقبضون على كاميرات التصوير، وكانوا يتساءلون: «كيف حال الذين يضغطون بأصابعهم على الزناد ليلَ نهار في هذه الحرب العبثية؟!»..

عندما تخرُج قافلة السيّارات الـ"لاندكروزر" حاملة جُموع الصّحفيين من العاصمة أسمرا في اتجاه أي من المواقع، كانت الأشياء تتكرّر أمامي، حتى بتُّ كمَن يحفظها عن ظهر قلب، دون أن يُمعن النظر فيها، وكثيرا ما كنتُ أشعُرُ بأن تلك الجبال المتناثرة - التي تكثُر على الأرض الإريتريَة- قد ملت الخرس الذي جعل منها مجرّد كُتلٍ صمّاء، لكنها أصبحت شاهدة - إن نطقت- على ميلودراما الحروب التي شهدتها جُغرافيا هذه المنطقة على مدى أكثر من قرن من الزمان.

إن كان ثمّة شيء تغيّر في البشر الذين يقابلونك على طول الطريق، وفي المُدُن والقُرى الصغيرة، فهو طغيان الزّي العسكري، للدرجة التي تكاد تتيقن فيها بأن إريتريا كلها أصبحت ثكنة عسكريّة، وفي هذا المناخ لا بُدّ أن تأخذك الشفقة على من يتوكأ على عُكّازةٍ ويحمل على كتفه بندقية كلاشنكوف، وتتساءل في سِرّك: «كم يا ترى من السنوات عاشها هذا الرّجُل في سلامٍ من جُملة سنوات عمره الطويل؟!».

لم تكن الأمور تجري دون مخاطر، ففي كل جبهة كانت تحدُث مواقف تجعل القلوب تتخلع من مخابئها، ولعلّ أقسى تجربة تعرّضنا لها كانت في "زالَ امبسّا" على الجبهة الوُسطى، إذ كاد أكثر من ثلاثين صحفيا أن يكونوا في عداد ضحايا هذه الحرب، فهي جبهة سَبَقَ أن وصفتها بـ"المَصْيَدَة"، فقد انهال القصف المدفعي المُكثف حال دخول السيّارات التي تحمل الزملاء - رغم تقليصها لثلاث- حُشروا فيها حشرا، مِمّا حدا بها أن تُسرع نحو مدينة "زالَ امبسّا" بسرعةٍ جنونيّة، وهرع الجميع للاحتماء ببقايا جُدران المنازل، علما بأنها لا تكفي لاتقاء شرور القصف، وعلى مدى أكثر من ساعة، احتار الجميع فيما يمكن عمله، حتى اهتدى المسئول إلى فكرة أن تخرُج السيّارات واحدة تلو الأخرى بطريقٍ خلفي غير مُسفلت، وهذا ما حدث بالفعل.. وما كادت آخر واحدة تبارح مكانها حتى

سقطت قذيفة أحدثت دويا هائلاً في ذات الموقع، وكانت تلك بحقٍ تجربة مثيرة، لا تخلو من مخاطرة حمقاء، إذ اتضح لنا أن القوّات الإثيوبيّة التي ترابط دفاعاتها فوق جبلٍ مُطِلٍ على المدينة، تكشف كل حركات وسكنات ما يقع أمامها، نسبة لانخفاض المكان.

كان غريباً أمر "زالَ امبسّا" هذه، فقد زُرناها في بداية الحرب وكانت مجرّد أطلالٍ تشكو حظها العاثر، ومرّة ثانية في الجولة الثالثة، وقد انسحبت منها القوّات الإريتريّة إلى ما خلف المدينة، ورابطت على مشارف مدينة "صنعفي"، ومرّة ثالثة كانت قد انسحبت من تلك المواقع وأخلت مدينة "صنعفي" نفسها من ساكنيها، ورابعة بعد معركة ضارية بين الطرفين اضطرّت فيها القوّات الإثيوبيّة المُتقدّمة إلى إخلاء مواقعها من قمّة جبل "أمباسيرا" (أعلى قمّة جبل في إريتريا)، وصعدنا إلى قمّة جبل "عربتكلا"، الذي ترابط فيه القوّات الإريتريّة وتقع مدينة "صنعفي" على سفحه الخلفي.. المُفارقة أنه من قمّة ذلك الجبل، كنا نرى الدفاعات الإريتريّة والإثيوبيّة حيث لا يفصل بينهما في بعض المواقع سوى بضعة أمتار، وبالطبع كان لا بُدّ أن يتساءل من يُشاهد ذلك عن أسباب عدم تقاتُل الطرفين، وهُما يقفان على مقرُبة من بعضهما البعض؟! وكانت الإجابة: استحالة ذلك من الناحية العسكريّة، وإن بدا نظرياً فيه شيء من المنطق.

من الطرُق الجديدة التي سلكناها في هذه الجولة الثالثة من المعارك، تلك التي تؤدّي إلى جبهاتٍ غير مُتنازع عليها، أو بالأحرى حيث توغّلت القوّات الإثيوبيّة في العُمق الإريتري.. أمكننا الوصول إلى مدينة "عدي خالا" وقد نزح عنها سُكانها بعد أن استهدفها القصف المدفعي الإثيوبي.. ثم ذهبنا إلى مدينة "بارنتو"، حاضرة إقليم القاش بركة، عبر الطريق الذي يخرُج من أسمرا، مروراً بمدينة "كرن"، فـ"أغوردات" ثم "بارنتو"، وكُنا قد وصلناها في اليوم التالي بعد المعركة التي دارت مع القوّات الإثيوبية لإجلائها عن المدينة.. لم يكن ثمّة شيءٍ يسترعي الانتباه، سوى أن القوّات الغازية رحلت عنها بعد أن حملت منها كل شيء عدا جُدران المنازل، أما المُنشآت، فالذي كان يسُرّ الناظرين منها أصبح مجرّد أعمدة، بعد أن تمّ تدميرها بالكامل.

إذاً، فهي حربُ أحقاد، كما أجمَعَ الذين شاهدوا تلك المناظر، وكُنا عند مغادرتنا لتلك المدينة في نهار قائظ الحرارة، رأينا مجموعاتٍ من المواطنين تتجه صَوْب المدينة مشياً على الأقدام، وهُم الذين هربوا إلى المناطق المجاورة ساعة الغزو، بدا أنهم لم يستطيعوا الصّبر طويلاً حتى يتم تطهير المدينة من الألغام الأرضيّة، فقصدوها بُغية تفقد مُمتلكاتهم التي تركوها خلفهم، والمني خاطرٌ شارد وأنا أتفرّس وُجُوهَهُم بأنهم بعد كُلّ تلك المسيرة المُضنية لن يجدوا سوى بقايا ذكريات معلقة علي جُدران منازلهم.

ذهبنا إلى "تسَنَيْ"، المدينة التي ترقد في أقصي الغرب الإريتري، وكانت تلك الرحلة الثانية.. وصلنا جوا بطائرة هليوكوبتر، وركوب مثل هذا النوع من

الطائرات هُو في حدِّ ذاته تذكرة بالحرب وظروفها، فليس الأمر مثلما هو في الطائرات المدنيَّة، حيث إجراءات السلامة الروتينيَّة تُؤدِّيها أمامك مضيفة أنيقة لا تمَلّ ما تفعله وتكرِّره يومياً.

كُنا في "تَسَنَيْ" ساعة تحريرها من القوَّات الإثيوبيَّة، ورغم أن المعركة لم يمض عليها سوى ساعاتٍ، إلاَّ أن الجثث المتناثرة على الجبال كانت قد بدأت في الانتفاخ من شدَّة الحرارة، ولهذا طغت على المكان تلك الرائحة الكريهة المُميِّزة لبَنِي البشر، فأثارت الغثيان عند البعض، والتأفُّف والاشمئزاز لدى البعض الآخر، وكان ذلك - على أيِّ حالٍ- هو واقع تلك الحرب اللئيمة، ولا أدري كيف تسنَّى لنا التعامُل مع ذاك الواقع دون أن تتحرَّك فينا ذات المشاعر الأولى التي تنتاب المرء عندما يرى الموت مُجسَّداً في جُثثٍ تمزَّقت واحترقت وتقطعت أشلاء؟!

مَن شَاهَدَ مثلي حال هذه المُدُن في زمن السِّلم، ويراها في ذلك الحال في زمن الحرب، يصعُب عليه أن يقارن بين الشيء ونقيضه، ولهذا فإن لهثنا المُتواصل في صُعُود الجبال لرُؤية وقائع ما جرى، ربَّما كانت المُعاناة فيه هي خيرُ مُعينٍ لنا في عدم إعطاء العقل سانحة للتفكير أو التأمُّل، فيُصبح البعض منا أشبه بآلة حمقاء تُنجِز عملاً موكولاً لها.

اتجهنا صوب "عَصَبْ" بذات الطائرة الهيليكوبتر، حيث استغرقت الرحلة نحو ساعتين من الزَّمن، وقفنا خلالها على انسحاب القوَّات الإريتريَّة في داخل أراضيها حتى أصبحت دفاعاتها على بعد ٣٧ كيلومتراً من المدينة التي تضُم الميناء.

كُنَّا قد وصفنا في زيارتنا الأولى لها العام الماضي وضعيَّة الدفاعات التي اتخذت شكل السُّور، ورُصَّت حجارته بطريقة تدُل على صبرٍ مُدهش، ولهذا كان الانسحاب منها أمراً ثقيلاً على النفس، ولا أدري إن كان كذلك في نفوس الذين نفذوه أم لا؟!

كان ذلك هو المشهد الوحيد الذي تغيَّر في تلك الجبهة، وما دونه يقف ساكناً يتنفَّس الأزمة بصمتٍ مثير، وفي الدفاعات الإريتريَّة كان التأهُّب واضحاً.. الأيدي على الزناد.. والعيون تحدِّق في الفضاء الواسع، حيث لا تضاريس جبليَّة يرتدَّ منها البصر.. لقد كان الواقع يُنبئ بحُدُوث معركة فاصلة كبيرة، وبالطبع بعضنا تمنَّى أن تحدُث حتى ينقُل وقائعها، إذ لا يمكن آنئذٍ للعاطفة أن تُنازِع المِهنة بعض غاياتها، وتظل "عَصَبْ" كما ذكرنا هدفاً إثيوبياً - إن سلماً أو حرباً- وذلك لا علاقة له بهويَّة النظام الذي يتسنَّم سُدَّة الحُكم، فلن يهدأ للحاكمين بالٌ إن لم يُحققوا أشواقهم وأمانيهم في هذا المنفذ/ الذي يمنح الحياة ويضمن استمراريَّة البقاء.

المعركة التي توقعناها لم تحدُث خلال وُجودنا، وقد انطلقت رُصاصتها الأولى بعد مغادرتنا بيومين، حيث دار قتالٌ عنيف لم تشهده تلك الجبهة من قبل، فاتنا أن نشهده أو نعود مجدداً للوقوف على ما خلفته تلك المعركة من كوارث

بشريّة وماديّة. وبالطبع، لم يجد الإثيوبيون بُغيتهم في الوصول إلى الميناء لفرض واقع جديد يُعقّد من طبيعة المشكلة.

تجدُر الإشارة - كما ذكرت آنفاً- إلى أن الجولة الثالثة من الحرب استقطبت عدداً كبيراً من الصّحفيين بوسائل إعلاميّة تعدّدت أنواعها - عدا إعلام المنطقة العربيّة- وبعض أولئك كانت زيارته للمرّة الثانية أو الثالثة، وآخرون جاءوا لأوّل مرّة، وهذا التدفق أتاح لنا تجاذُب أطراف الحديث في المسافة بين العاصمة والجبهات، أو في المواقع المختلفة، ومنها تعرّفتُ عن كثب على العقليّة الغربيّة - أو الأوروبيّة- التي تتعامل مع قضايا المنطقة، وبالذات القضيّة التي نحن بصددها.

بلا مواربة، قد يندهش المرء من الاستنتاجات المُحبطة، إذ غالباً ما يأتي الواحد من هؤلاء وهو خالي الذهن من المعلومات الأساسيّة التي تعينه على فهم طبيعة المُشكلة، وجميعهم على قلب رجُلٍ واحدٍ في البحث عن الإثارة التي يفتعلونها أحياناً إذا لم يجدوا ما يُلبّي رغائبهم. وكثيراً ما أجدُ نفسي ميّالا إلى اللامُبالاة أو الاستياء أو الضحك المكتوم إزاء أسئلة يطرحونها، ويُفترض أن تكون من البديهيات، ومع ذلك فهناك قلة - وهي استثناء- تحيط بقدر لا بأس به من الموضوع، لكن الغلبة الغالبة سيطرت عليها عقليّة السّائح الذي ينظر إلى الوقائع من خلال عدسة صغيرة ليطبعها في ذاكرته.. وأيضاً للبعض مآرب أخرى!!

بينما المعارك مشتعلة على الجبهات، بدأت السُلطات الإريتريّة تعيش قلقاً اخر مستمداً من وضعيّة الإثيوبيين المتواجدين على أراضيها، وخشيت أن ينفد صبر بعض المواطنين، فيقومون باعمال انتقاميّة بعد الغزو.

أسقطت السُلطات الإريتريّة نهجها الذي حافظت عليه منذ بدء الأزمة، وقضى بعدم طرد الإثيوبيين، مثلما فعلت اديس أبابا، فعملت على فرزهم في معسكرات، وفصلتهم عن مواطنيها النازحين من المُدن التي طالها الغزو الإثيوبي، ثم بدأت في إرسالهم على دفعاتٍ بإشراف هيئة الصليب الأحمر الدولي، وقالت إن هذا الإجراء يهدف إلى المحافظة على سلامتهم.(١) إذا، فقد دخلت الحرب في طور لا يعرف المُسلّمات، وليس فيه ادنى نوع من المثاليّة.

في تلك المواقع دائماً ما أصادفُ وُجوهاً عرفتُها في أزمنة السّلم في العاصمة أسمرا، ويُدهشُني أن معالم البعض تغيّرت وامتزجت قسماتُهم بمناخ الحرب الكئيب.. ومن بين هؤلاء، أحدهم أعرفه تماماً، واعلم أن مهنته هي تزويد البراعم واليافعين بالعلم والمعرفة، ولكن ظروف الحرب فرضَت عليه أن يضع "الطبشور" جانباً، ويحمل بدلاً عنه بندقية "الكلاشنكوف".. جلستُ أستمع إليه وهو يُحدّثني عن مشاعره وانطباعاته ومُشاهداته لأحداثٍ كان الموت فيها بالنسبة له أقرب من حبْلِ الوريد، فآثرتُ أن أفسح له هذه المساحة لصدق قوله ودقة ملاحظاته..

قبل ان يبدأ حديثه، بدا يُحدّق طويلاً في الفضاء، حتى ظننتُ أنه يبحث عن شيء مفقود.. فقال: «**استُدعيتُ إلى جبهة "ظرُونا" بعد سقوط "بارنتو".. وبعد**

ذلك الحدث الجلل، كُنتُ أشعُرُ وأنا في أسمرا بأن القوّات الإثيوبية ستصل إلى العاصمة، لكن هذا الإحساس ذاب تماماً بعد وصولي إلى الجبهة.. عندما بدأت المعركة، انتابني خوفٌ شديد، وكان ذلك شعوراً طبيعياً، لكن لحظة الخوف تلك عُمرُها في الوقت الذي انطلقت فيه الرُصاصة الأولى من فُوَّهة البُندُقِيَّة وحتى الهدف.. هناك استرخصت الحياة تماماً، وسيطرت على كياني حالة قَدَرِيَّة أقرب إلى أحاسيس الصوفيين، وهذا أمرٌ يُوفره مناخ الحرب نفسه، حيث يتحوَّل المكان إلى كتلة من النيران والدخان الكثيف، وأنت لا ترى أي شيء غيرهما».

توقف فجأة، وبدا أيضاً كمَن يبحث عن شيءٍ ضائع في الأفق، واستطرد بعد أن تنهَّد بصوتٍ مكتوم، كان أقرب إلى الأنين: «كانت أكثر الأشياء غرابة إلى نفسي منظر الجنود الإثيوبيين وهُم مُقبلون نحونا في شكل موجاتٍ بشريَّة يتدافعون دون أن يطلقوا رصاصة واحدة حتى يقتربوا من مواقعنا، بينما كان رصاص بنادقنا ينطلق نحوهم ويحصدهم، فيسقط من يسقط. كان الآخرون لا يعبأون بذلك، فيظلون مستمرّين في سيرهم كأنما الأمر لا يعنيهم، وعندما يتسنى للبعض أن يصل حتى مواقعنا الأماميَّة، كانوا يشتبكون مع أفراد قواتنا بالأيدي.. كان ذلك أمراً غريباً على نفسي بحق، ولم أجد لهذه التهلكة تفسيراً».. ثم توقف.. وأكمل سرده بجملةٍ مُقتضبة حملت كمَّاً هائلاً من المشاعر الإنسانية: «صدِّقني، كنتُ أحياناً أشعر بالعطف نحوهم».. بعد فترة صمت قصيرة، ولرُبَّما تأمُّل، أردف قائلاً: «عقب كل جولة، كنتُ أجلسُ إلى نفسي وأستدعي ذاكرتي للتفكير فيما يحدُث، فأزداد ضيقاً وكرهاً لانتمائي إلى هذه القارَّة المنكوبة التي لا تعرف غير الحروب والكوارث شيئاً»..

حدَّق طويلاً هذه المرَّة في الأفق حتى ظننتُ أنه قد أكمل حديثه، لكنه واصَلَ بشيءٍ من الاعتزاز: «يبدو أنني تعلمتُ أشياء كثيرة من هذه التجربة.. ربَّما تعينني على فهمٍ أعمق للحياة مستقبلاً».. فقاطعته بقولي: «مثل ماذا؟!».. فأجاب: «أعرف أن بعض زُملائي قد وقع في الأسر، لأنه كان يحاول إنقاذ جريح ولم يشأ أن يتركه وينجو بنفسه.. ومن الأشياء التي لن أنساها، كان أحد الزُملاء قد أصرَّ علي حمل جريح علي ظهره، وكانت إصابة هذا الأخير بالغة الخطورة، وظلَّ يرجوه بأن يذهب ويتركه ليواجه قدره، إلا أن ذاك أصرَّ على حمله على ظهره، وما أن فعل ذلك، حتى جاءت رصاصة واخترقت ظهر الزميل السليم وأصابته في مقتل، ونجا الذي كان جريحاً بعد أن زحف مسافة ليست بالقصيرة!».. ثم تابع حديثه: «هناك موقف مماثل لهذا حدث في الجانب الآخر، فقد وصل إلى مواقعنا أحد الجنود الإثيوبيين زاحفاً أيضاً بعد أن قطع عدة كيلومترات، واكتشفنا أن به جرحاً عميقاً كان ينزف بغزارة، وعلمنا منه أن زملاءه استهدفوه من الخلف بعد أن هرب من بينهم، ومع ذاك الجرح وكل ذاك النزف، فقد كان المُرجَّح ألا يصل أبداً إلي مواقعنا حيث تمَّ إنقاذه.. أعتقد أنها إرادة الحياة بالنسبة للاثنين».. ثمَّ

أضاف: «حتى بالنسبة لشهدائنا، فقد علمونا أن دفنهم وقبرهم - حتى في أحرج المواقف أثناء المعارك- هو رسالة مقدسة»..

مضى في حديثه: «كُنا بعد كُلّ معركة ننتظِّم في اجتماع تقييمي نتحدَّث فيه عن الايجابيّات والسلبيّات، ويقوم البعض بتقديم نقد ذاتي لأنفسهم.. وفي أوَّل اجتماع حضرته، دُهِشتُ عندما قام أحدهم وانتقد نفسه بقوله إنه يشعُر بتأنيب الضمير لأن الجُرح الذي أصابه لم يكُن يستدعي معاينة الوحدة الصحيّة التي نصحه الطبيب فيها بأخذ قسط من الراحة، وعلى الرغم من أن قانون الميدان يمنحه ذلك الحق، إلا أنه قال بأنه يشعُر بخجلٍ شديد، وكان ذلك بالنسبة لي أمراً عجبا».

وتابع قائلاً: «عندما كان يتحدَّث، كنتُ أدقِّق النظر في وجهه وأتفرّس ملامحه.. خُيِّل إليَّ أحياناً أن قسماته تتمدد وتنكمش، ومرَّات تتهلل أساريره وأخرى تنقبض.. كانت عيناه تبرقان ولا تكادان تستقران على شيء.. كأنما تحاولان التستر على قلق يعتمل في صدره»..

واستطرد بنصف ابتسامة: «المُفارقة أنه أثناء المعارك، وبينما الرصاص ينهمر كالمطر، والطبيعة اكتست بذلك اللون الأحمر والدخان الكثيف، تجد البعض يلقي نكاتا ساخرة، ولا يتوقف عن "الونسة" التي ليست لها علاقة بمُجريات الحرب، وحتى عندما تهدأ المعارك قليلا، كان البعض يستذكر المواقف الطريفة التي تقتلع الضحك من الصدور، كنتُ أتأمّل ذلك وأخلص إلى أنها عبثيّة الحياة والموت، أو محاولة الجمع بين الأضداد». وكدأبه في الصّمت بين كل رواية وأخرى، توقف برهة ثمّ استطرد، مختتما مشاهداته: «أتدري ماذا فعلتُ عندما عُدتُ إلى أسمر؟!».. ألقى عليّ السؤال دون أن ينتظر إجابتي، وتابع قائلاً: «نِمتُ نوما عميقا، كأنني أمارس هذه العادة لأوَّل مرّة في حياتي».

عندها تذكرتُ ما قاله الجنرال غوردون في مذكراته قبيل اغتيال المهدويين له أثناء حصار الخرطوم: «من حقي أن أقول إنني فقدتُ كُلَّ رغبة في أمور الحياة من ناحية ماديّة، فلم أعُد راغباً في أكل أو شرب، ولا مُرفهات. وإذا كانت لي رغبة، فإنما أرغب في نوم لا حلم فيه»!

كانت تلك هي بعض وقائع الجولة الثالثة من الحرب، والتي كانت في تقديري عملاً شيطانياً خاضته القوّات الإثيوبيّة برغبة تدميريّة عارمة، بينما دخلته القوات الإريترية بغريزة البقاء.

مايو/ يونيو ٢٠٠٠

هَوَامِش الفَصل الثاني عَشَر

(١) عقد السيد "تسفاي جرامازيون"، نائب وزير الخارجيّة الإريتري مؤتمراً صحفياً يوم ٢٠٠٠/٦/٧ بخصوص هذا الموضوع، وقال فيه إن بلاده تريد ترحيل الإثيوبيين المتواجدين على أراضيها، وذلك: «بُغية تأمين وضمان سلامتهم».. غير أنه تردَّد أن الكنيسة الإريتريّة بفروعها الثلاث (الأرثوذوكسيَّة، الأنجليكانيَّة والبروتستانتيّة) قد التمَست عدم المُضي قُدُماً في هذا الإجراء، لأنه قد يُخِلُّ بالتركيبة السُكانيَّة العقائديَّة التي يتناصفها المسلمون والمسيحيون، وتمَّ الاستدلال على ذلك بعدم حضور أيٍ من ممثلي الطوائف الثلاث للاحتفالات الرسميّة بمناسبة يوم الشهداء في ٢٠٠٠/٦/٢٠، حيث حضر مُفتي الديار الإريتريّة الشيخ الأمين محمد عثمان وحده، في حين دَرَجَت العادة - فيما مَضى- على حُضورِهِم جميعاً كرمز للتآخي الديني.

من جهةٍ أخرى، أعلنت وزارة الخارجيَّة في بيان لها يوم ٢٠٠٠/٧/٢٠، أن الصليب الأحمر الدولي أبلغها رفض الحكومة الإثيوبيّة استقبال الدفعة الأولى من مواطنيها الذين عزمت على تسفيرهم، وعددهم نحو ٢١٠٠ مواطن إثيوبي.